[illegible] الثائر

بقلم

عبد الرحمن الخميسي

جمال الدين الافغاني



٦

كتب للجميع

ابتداء من اليوم الاثنين

ماري كويني تقدم

ابن النيل

فخر مصر في مؤتمر السينما الدولي

إخراج
يوسف شاهين

تمثيل

فاتن حمامه
يحيى شاهين
شكري سرحان
سميحه توفيق
محمود المليجي
فردوس محمد
نادر جلال

توزيع بهنا

بسينما ريفولي

قريبا في الاسكندرية بسينما فريال

المطحونون

بقلم

عبد الرحمن الخميسي



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ ألف ليلة الجديدة (الجزء الاول) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية
٢ ـ ألف ليلة الجديدة (الجزء الثانى) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية
٣ ـ من الاعماق (مجموعة قصص) طبعة خاصة تطلب من المؤلف
٤ ـ يوميات مجنون (أقاصيص مترجمة) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية
٥ ـ المكافحون (مجموعة سير) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

كتب تحت الطبع للمؤلف

١ ـ الظاهر والباطن (مجموعة قصص)
٢ ـ غرام فنان (قصة طويلة)
٣ ـ فوق الحياة (ديوان من الشعر)
٤ ـ غبار الطريق (مجموعة صور تحليلية)
٥ ـ الباحثون عن الحب (قصة طويلة)
٦ ـ من أفق الموسيقى (صور فنية تحليلية)
٧ ـ الساق اليمنى (قصة طويلة)
٨ ـ من غربة الروح (ديوان من الشعر)
٩ ـ قصة ميت

إهداء

إلى ماهر محمد على الذى تتمثل
فى شخصه الحبيب ملامحُ القرية
الطيبة "منية النصر" .. هدية
إعزازٍ له .. وللريف .. وللنضال

عبد الرحمن الخميسى

٢٥ / ٩ / ١٩٥١

فى عصور الطغيان ، كانت القوى الغاشمة تسجن الاحرار، وتقتلهم ، ظنا منها أن فى تلك الاعمال الاجرامية ، قتلا للافكار والمبادىء التى ينادى بها المفكرون والمناضلون •

ولكن الواقع أن أفكار هؤلاء فى سبيل الشعوب ، تسرى فى الناس ، وتبقى فى العقول لاتزول ، حتى تخرج من حيز الامانى الى النطاق المادى ••

وهذه مجموعة من سير المكافحين ، تصور بعض نواحى حياتهم ، نسوقها الى القراء ، لعل فيها حفزا لكل مؤمن بحق الشعب فى الحياة الكريمة الحرة ، الى الجهاد المتواصل ، والى التضحية بكل غال فى سبيل المجموع •

الكاتب .. الثائر .. المناضل

على الكتـــاب ان يحطمـوا أقلامهم ، اذا ألمت بالوطن النكبات ولم يشهر كل منهم يراعه كالحسام يفلق به رءوس الجـــائرين . عليهم ان يـكسروا اقلامهم اذا لم يلبوا صرخـة الوطن الجـــريح ويجندوا هذه الاقلام ، ينفخون القوة منها فى الارواح ، ويجعلون صريرها دويا متواصلا فى الضمائر والقلوب ، ويمزقون بها وجـه الظـلم والظالمـين . واذا كانت رسالة الكاتب هى الدعـوة الى الحق والحرية ، فجـدير به ان يدعـو اليهما وان يعمـل عـلى تحقيقهما فى وطنه . ومصـــر السخية العظيمة التى تجود على ابنائها بالخير والنعمة ، مصـــر العروس الخضراء التى تتفتـح العيون على سحرها وفتنتهـا ، مصر التى توحى وتلهم وتـزود الارواح بكل معنى جليل رائع ، مصر امنا الوفية الرءوم ، جديرة بأن نقدسها ما طلع الصـــباح وما جرى النيل وما دبت فى اجسادنا الحياة وخفقت بين صـــدورنا القلوب

واذا أهاب داعى الوطن فعلينا ان نخوض الهول والموت ، كل بما ملكت يداه ، الجندى بسلاحه ، والمناضل بدمه ، والكاتب بقلمه !!

فالى الاحـــرار من بنى مصر الوطن العظيـم ، نهدى هـــذا الفصل من سيرة السيد عبد الله نديم ، لنـــؤكد به أن التشريد والتعذيب يهونان فى سبيل الوطن امـام المثـــل الاعـلى الـذى يستـولى على قلب صـــاحبه فينسيه كل ما عداه

ليس يعنينا فى هذا الفصـــل ايها القراء ان اذكر لكم اين ولد

السيد عبدالله نديم، فكلنايعرف انه من مواليد الاسكندرية . وليس يعنينا ايضا ان اثبت لكم ان اباه انتقل من بلدته الطيبة بمديرية الشرقية الى الثغر الاسكندرى وعمل نجارا فى صناعة السفن ثم افتتح مخبزا هناك بعد ذلك

المهم ، ان السيد عبد الله نديم نشأ فى بيئة فقيرة ، وعانى ما عانته تلك البيئة من عسر الرزق وضنك الحال . وقد لحظ ابوه ميل الطفل الى الكتب ورغبته الشديدة فى المطالعة فكان يشجعه على حضور الدروس فى مسجد الشيخ ابراهيم باشا . وقد دفعه ذلك الميل الى مخالطة رجال الادب والاستنارة بارائهم والاستماع الى مناقشاتهم . واستطاع عبد الله ان يفيد من تلك الحلقات افادة ادبية كبرى ارهفت حسه وكونت له ذوقا ادبيا رفيعا . هذا الى جانب مطالعاته ومحاولاته المتكررة للانشاء . واشتد على التدريج ساعده الادبى فراح ينظم الشعر والزجل واخذ يطارح الشعراء والادباء حتى كان يتجمع حول مطارحاتهم جمهور كبير من عشاق الشعر تنصب لهم الحلقات بعد الحلقات . ولكن الشعر لا يطعم ولا يسد رمقا .. وانه الى جانب ذلك يصرف الشاعر عن العمل ويحتم عليه الفراغ . ومن هنا التفت عبد الله نديم ذات يوم فاذا يده فارغة وجيبه خال والدنيا امامه مثل الصحراء تسفى على رمالها الرياح

وكان لابد له فى تلك الفترة ان يمارس مهنة تدر عليه مايمسك به اوده ويحفظ عليه ماء وجهه. فتعلم فن الاشارات البرقية وعمل فى مكتب البرق ببنها العسل وانتقل منها بعد ذلك الى القصر العالى مقر والدة الخديوى اسماعيل باشا . وقد اتاح له عمله الجديد ان يتعرف بمشاهير الادباء والشعراء وان يذيع صيته ويجل قدره . واطمأن عبد الله نديم الى وضعه هذا وراح ينمى شهرته بما تجود به قريحته وروحه من فنون القول . وكان فى القصر ابان ذلك خليل اغا وكان له من السيطرة ما يخيف

ويهز الفرائص ، فاذا رضى أغا القصر عن انسان فقد رضيت عنه الحياة وتبسمت له الدنيا . واذا غضب اغا القصر على شخص، فقد اكفهرت امامه السبل وضاقت الطرق وتعثرت خطواته فى الاوحال والاقذار .. خليل أغا ، هو الحاكم بأمره ، والحكم لله وحده ! ! وقد غضب خليل أغا هذا على عبد الله نديم فأمر بفصله من عمله ولكنه الى جانب ذلك امر ان يضرب عبد الله قبل ان يغادر القصر ! ! ولم يكن لامر خليل اغا مرد ! ! فضرب الرجل ضربا مبرحا وطرد على اقبح وارذل الوجوه ! !

فالى الشارع اذن يا عبد الله وهو رحيب وسيع يضم كثيرين امثالك .. الى المقاهى والحلقات الشعبية فان فيها متسعا لكل من ضاقت به الدنيا وقذفت به من عل الى الحضيض ... وما يضيرك ان تأكل كسرة من الخبز وان ترشف جرعة من الماء وانت غنى الروح ثمين النفس ؟ لقد ازيد لك ان يتخلى عنك العمل ، ولكن عملك الاكبر لم يتح لك فيه المجال ، وان عليك ـ حتى يحين الوقت ـ ان تتلمس الرزق أينما سعت بك قدماك ، ولن تخونك الحيلة فى الظفر بطعامك ومأواك

واخذ عبدالله يتقلب على كف الحياة من عسر الى عسر ومن ضيق الى ضيق حتى ساقته المقادير الى الشيخ ابى سعدة عمدة بدواى بالدقهلية فاقام عنده يعلم اولاده القراءة والكتابة جزاء طعامه ونومه ، ولكنهما تشاجرا شجارا عنيفا افضى بعبد الله نديم الى السير على وجهه مرة اخرى فى متاهة الحياة خالى الوفاض ولكنه عامر النفس ! وقيض الله له بعد ذلك من افتتح له حانوتا لبيع الخردوات بالمنصورة ولكن اسراف عبد الله اتى على الربح وراس المال وادى به الى اغلاق الحانوت ، وجعل الرجل بعد ذلك يتجول فى البلاد وافدا على اكابرها فيكرمون وفادته ويبتهجون بمقدمه ويعقدون حوله الجلسات

الطوال مستمتعين باحاديثه العذبة الطلية وما تنطوى عليه من معان وافكار . ودام الرجل على هذه الحال حتى اتصل بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى الذى اعجب بظرفه وادبه وطلاقة لسانه فاتخذه رفيقا حيث حل. وظل فى ضيافة ذلك الباشا مدة طويلة اتصل بعدها بالتتونجى بك فجعله وكيلا على ضياعه ومازال يقوم بهذا العمل حتى عاد الى الاسكندرية مسقط راسه

تلك هى خلاصة الفترة الاولى من سيرة السيد عبد الله نديم . وقد اتخذت حياته بعد ذلك شكلا ووضعا اخرين متغايرين . وان الذى يتابع سيرته من تاريخ عودته الى الاسكندرية حتى النهاية ، قد يستغرب كيف يتحول هذا الرجل المرح الجوال فى أنحاء البلاد يتلمس الرزق بالظرف والخفة ، الى سيف ابتر ماضى النفاذ ؟!

ولكن الواقع انه كان يستر تحت مرحه دم الجراح المتفتقة بين جنبيه ، وانه كان فقط يتحين الفرصة كى ينفض نفسه الحقيقية امام الناس وكى يبين لهم الجمر تحت الرماد . وقد كانت اعباء مصر فى تلك الفترة تفرض ذاتها على كواهل العارفين الفاهمين الاذكياء . وكانت اشجان الوطن كثيفة ثقيلة بحيث يستدعى وضع مصر أن تتألف قلوب بنيها لدفع الاخطار التى تهدد كيانها ومستقبلها . وعلينا ايها القراء ان نعود باذهاننا القهقرى الى الوراء ، الى عهد اسماعيل باشا ، كى يمكن لنا ان نتصور التدهور المادى الذى وصلت اليه البلاد ، وكى نستطيع ان نتخيل الناس اشباحا من الجوع ، عرايا من العوز تلهب ظهورهم سياط جباة الضرائب التى يرزح تحت ثقلها الشعب بأسره . الدولة فى حاجة الى انهار المال ، فليتصبب ذلك المال عرقا ودماء على جباه المواطنين المكدودين التعساء . واذا نحن عدنا الى عصر اسماعيل نستطلع فيه الايدى السياسية الخفية التى تندس فى الظلام لتحوك وتنسج المؤامرات والدسائس ،



راعنا ان تلك الايدى المدسوسة الاجنبية عديدة كثيرة ، وانها لم تكن تهدف بحركاتها الا الى وضع البلاد فى عنق الزجاجة كما يقولون، كى يتسنى لها ان تظفر بالغنيمة وان تأكل لحم الامة وتشرب دمها ! ! وقد افاقت على هذه الدسائس والحركات اللئيمة التى تمتد من الوراء عقول متفتحة واعية . وكان للظلم الواقع على كاهل الشعب اثره البالغ فى اشاعة السخط والتبرم لا على السنة عامة الناس ، ولكن على وجوهها واساريرها ! !

ولكن الطبقة المستنيرة من الشعب ارادت ان تفصح عن امانيه المحطمة المتوارية تحت الثوب المزيق والبدن الهزيل والروح المظلوم المنكود . وكان لابد ان يأخذ ذلك التعبير طريقا عمليا فى نهاية حكم اسماعيل وكان السيد عبد الله نديم فى تلك الاونة قد وصل الى الاسكندرية فوجد هناك لفيفا من الشباب المتحمس قام بتأليف جمعية سرية يجتمعون فيها على البطش بكل مظهر للطغيان . وكان اسم هذه الجمعية « مصر الفتاة » فرحب عبد الله بفكرتها اذ رأى فى ذلك متنفسا لما يطوى عليه جوانحه وانضم اليها يدا عاملة وقلبا حارا صادقا . وعمل فى الصحافة فأخذ يدبج المقالات الرائعة الفريدة . وكان اسلوبه نمطا جميلا لا مثيل له بين المشتغلين بالصحافة فى ذلك الحين ، ثم عمل بعد ذلك هو وجمع من الادباء على تكوين (الجمعية الخيرية الاسلامية) واختاره زملاؤه مديرا لمدرستها وكان ذلك فى اواخر حكم اسماعيل باشا . وقد بلغ فى تلك الفترة تذمر الشعب حدا لا نهاية بعده ، ولعبت فى الخفاء اصابع السياسة الاجنبية ادوارا رهيبة ادت الى خلع اسماعيل باشا وتولى توفيق باشا وظن الناس ان الازمة قد سلمت نفسها للرياح ، وان الله بدل من العسر يسرا . واخذ عبد الله ينشىء المقالات يدعو فيها الناس الى اتحاد الكلمة فى وجه الاجنبى وراح يلقى الخطب تتناقلها البلاد بلدا تلو الاخر . ووضع فى ذلك الحين قصة اسماها «الوطن وطالع التوفيق»

واخرى سماها « العرب » ابان فيها ما آلت اليه حال الوطن . وقد تردد ذكر الكاتب فى كل مكان ولهج بحمده والثناء عليه كل مواطن وعمت شهرته وذيوع صيته ارجاء البلاد .

ولكن الجمعية الخيرية الاسلامية طرأ عليها فساد أسندوه الى عبد الله . فتركها بعد عكوفه على بنائها وانشأ صحيفة « التنكيت والتبكيت » خلط فيها الجد بالهزل واخذ يلذع بما يكتبه كل جائر وكل جور .

كان الفلاحون اصحاب الارض وزارعوها وجالبو خيراتها كأنهم مطايا للشراكسة فى ذلك الحين . وكان ذلك الطابع عاما فى كل مناحى الحياة فى الوظائف المدنية والاعمال الحرة والمعاملات الشخصية والجيش . وكانت النفوس تجيش وتغلى فى صمت مرير بليغ والافواه مكممة مغلقة ! ! واذا قدر لاحد ان يشكو او ان يطالب بحقه الشرعى فى الحياة فان السياط هى الجواب على مايقول وان الاضطهاد فى اعنف اشكاله هو الرد على ما يفوه به . وقد كان الضباط فى الجيش يلحظون باعينهم تلك المحاباة الصارخة التى يعامل بها من دونهم الشراكسة ، ومازالت حادثة عثمان رفقى باشا مع احمد عرابى باشا الزعيم الفلاح ماثلة فى الاذهان ! ! ولسنا هنا فى سبيل سرد تفاصيل الحركة العرابية لان ذلك له مجال اخر .

وحسبنا ان نذكر هنا ان الحركة العرابية كانت اول حركة جريئة صادقة يرتفع فيها صوت الشعب فوق كل صوت ! ! ولقد ظلت رغبات الشعب حبيسة تفرى الضلوع وتحرق القلوب وظلت كذلك تلك الرغبات فى سجنها حائرة خائفة تتردد بين الظهور والخفاء ، حزينة مضطربة متقدة يعوزها اللسان الذى يفصح عنها واليد التى تلوح بها . ولقد كان عرابى ذلك اللسان وكان تلك اليد فى ذلك الحين . وكأن طول المدة التى اشتدت ابانها المظالم وازدادت فيها الاضطهادات وتفاقمت خلالها تعاسات ابناء

الوطن ، كأن تلك السنين الطويلة السقيمة الشجية قد صهرت فى بوتقتها النفوس ايذانا بانصباب النار واندفاق النقمات وهبوب الثورات . فقط . . كانت الحركة تتطلع الى القائد . . ولم يكن ذلك القائد غير عرابى وحده الذى اصبح بين يوم وليلة امل الامة كلها ، والذى صارت داره كعبة القاصى والدانى يحج اليها الوافدون وفى يد كل منهم شكاية وفى قلبه جراح ! ! عرابى صوت الفلاحين المكدودين التعساء ! !وكانت هذه فرصة سانحة يتحينها السيد عبد الله نديم ليضطلع بمهمته . . كان هذا هو الفجر الذى سطع فتعلق عبدالله بنوره . . الفجر للتائهين فى شعاب الظلام . . ان على السيد عبد اله ان يفرغ الان ما فى جعبته . ولقد عاش الرجل وفيا لامته وما لاح عرابى فى الافق حتى اخذ يروج له ويكتب الانهار الطوال فى صحيفته يحث بها الناس الى الالتفاف حول الزعيم وينبههم الى انه جالب حقوقهم الغصيبة وكان السيد عبد الله لا يكتفى بهذه المقالات النارية الصادقة ، ولكنه كان الى جانب ذلك يلقى الخطب الحماسية التى تلهب الارواح والضمائر تحمسا للحق وشدانا له !! وكانت خطابته ضربا فريدا من الخطابة ، مهيجا مثيرا . وكانت طلاقة لسانه — وهو يصور الظلم الواقع على كواهل الناس — فذة تحير الالباب .

ولماذا لايكون كذلك ؟ وهو واحد من الذين عانوا الشقاء غليظا كالحا طاغيا ، وكابدوا شظف العيش وناموا فى العراء وطووا بطونهم على المسغبة ؟!

لماذا لايكون كذلك وقد وسعت معرفته احوال هذه الكتل اللحمية التى تؤلف مجموع الشقيين من ابناء الوادى الحزين ؟ !

لماذا لايكون كذلك وقلمه يسيل ولسانه ينهمر ، ولا يعوزه من وسائل البيان خاف ولا مستدق ؟!

لقد كان عبد الله يتنقل من بلد الى بلـد ، ومن مكان الى مـكان ليرثى معالم الوطن الذبيح ويستبكى على خيراته من يخضبونها بدمائهم ويغسلونها بالدموع .

ولقـد كان يهيب بعـد ذلك بالباكين الناحبين ان يحفظوا الدمع فى مآقيهم ، وان يهبوا موجـة واحدة عاتية تكتسح كل مايعترضها فى الطريق !! الارض ارضنا ونحن بلا مأوى !! والزرع زرعنا ونحن بلا طعام ... والماء ماؤنا ونحن عطاش حيارى على متاهة الصحارى والرمال !! واذا كان الحق فوق القوة ، فان على الحق ان يجند له قوة يدفع بهـا كل بأس الى الانهيار .. كان عبدالله هو داعية الحركة العرابية الذى لايهدأ ولايستقر ، والذى يثير العواصف والمآسى فى القلوب أينما كتب واينما خطب . فلا عجب اذا انتقل الى القاهرة وقويت به الحركة فيها . ولقد كان وجوه القوم يولمون الولائم للعرابيين ويدعون عبد الله الى الخطابة ، فاذا قام الى الكلام ساد الحفل انصات بالغ شديد يعقبه دوى التصفيق وهو يتطاير موجات موجات على اجنحة السماء !

ونشبت الحرب بعد ذلك فى الاسكندرية بين العرابيين والانجليز فهرع اليها عبد الله مع جماعة من كبار الضباط ثم لحق بعرابى باشا وقد كسر جيشه الاعزل الى كفر الدوار ثم انتقل معه الى التـل الكبير وهو يصـدر فى المعسـكر الحربى صحيفة «الطائف» يطمئن بما يكتب النفوس الهالعة والقلوب الخائفة . وظل على هذا الكفاح المتواصل حتى منيت حركة عرابى باشا بالهزيمة ففر عـرابى وعلى الروبى وعبد الله الى القـاهرة واتفقوا على ان يحمل عنهم كتابا الى الاسكندرية يطلبـون فيـه العفو من الخديو . وما ان وصل عبد الله الى كفر الدوار حتى بلغه خبر القبض على زعمـاء الثورة ودخول الانجليز القاهرة . فرجع اليها وبات بها ليـلة اختفى اثره

بعدها عن اعين الجواسيس . وظل مختفيا هو وخادمه تسعة اعوام كاملة لايسمع له احدصوتاولايعرف مكانا !!وراحت الحكومة خلال تلك المدةتطلق وراءه العيون سدى ، ولما اعيتها الحيل ، حكم عليه بالنفى من القطر المصرى مدى حياته .

وجملة مايعرف عن اختفائه انه ودعاباه صبيحةذات يوم ببولاق وقصد دار احد اصدقائه هو وخادمه فأقام عنده اياما ثم بدل زيه فارتدى ثوبا من الصوف الاحمر (الزعبوط) واعتم بعمامة خضراء واسدل منديلا على عينيه واخفى شاربيه واطلق لحيته فتبدلت هيئته ثم هبط مع خادمه الى سفينة قاصدة بنها . وغادر بنها بعد ذلك الى منية الغرقا جوار طلخا . وكان السيد عبد الله اول اختفائه جزعا من تعقب البوليس له ولكنه كان ذكيا واسع الذكاء فما كانت تمتنع عليه الحيل فى تضليل الجواسيس بشتى الطرق والوسائل . وقدكتب المرحوم احمد تيمور باشا فى تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر ، فصلا عن حياة السيد عبدالله نديم جاء فيه انه قصد رجلا من مشايخ الطريقة الصاوية كان اخذ عليه العهد فى السلوك اسمه الشيخ شحاته القصبى وكان مشهورا بين الناس بالصلاح والتقوى فلما دخل عليه لم يعرفه لتغير شكله فجلس هنيهة حتى انصرف من بالمجلس ثم اختلى به وعرفه حاله واقام عنده ثلاثا ثم اشار عليه الشيخ بالانتقال واعتذر بكثرة الواردين الى داره واشار الى خطورة ذلك فتحول الى دار احد دراويش الشيخ الموثوق بهم فآواه شهرا ثم قصد بلدة اخرى وطوحت به الطوائح ولقى الاهوال . وحدث انه نزل مرة مختفيا عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة يتساوى بها الليل والنهار ويتوصل اليها من سرداب طويل شديد الظلمة وكانت ارضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك

البلدة . وكان لايتمكن من الكتابة والمطالعة الا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز كثير الدخان فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة اشهر ولما خرج منه كاد لايبصر الطريق لما غشى عينيه ، وكان كلما حل او ارتحل يغير اسمه وحلته فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ويخضبها بالحناء اخرى وكان اسم خادمه حسينا فسماه صالحا وخفى امره على الناس وظنوه شيخا من الصلحاء حتى لقى مرة بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه ثم القت به يد الاقدار الى بلدة تسمى العتوه القبلية بمديرية الغربية فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهشمرى فأكرم مثواه واقام فى داره ثلاث سنوات ونيفا تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به احد . وزوج خادمه حسينا بأخت زوجته ثم مات فى اثنائها رب الدار وكان شهما ذا مروءة كبيرة وله امرأة مثله شهامة ومروءة فاستحضرت اكبر اولادها واعلمته ان ضيفهم المختفى عندهم هو عبد الله نديم طريد الحكومة وسألته هل يطمع فى الجعل ويسلمه أم يكون كأبيه فى حفظ الجار وحماية الذمار ؟ فاهتز الولد لقولها وأبى الا ان يقتدى بأبيه فى الكرم . ولعمرى ان ما اتته تلك الاسرة من مكارم الاخلاق وعلو الهمة ، لما يندر مثله فى هذا الزمن . وتنقل عبدالله من بلد الى بلد وماتت زوجته ثم ذهب الى القرشية نزيلا عند احمد باشا المنشاوى فكان يجتمع به صديقه القديم الاديب محمد التميمى وغيره وتزوج هناك ببنت مصطفى منى من اهل المحلة الكبرى . الا انه لم يحمد المقام فانتقل الى دار التميمى فأقام بها شهرا ثم سافر الى الدلجمون بمديرية البحيرة فلم يمكث بها الا نحو اسبوع وعاد الى الغربية وقصد البكاتوش فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش وينتقل تارة الى دار جاره احمد جوده .. وكان رجلا قوى الجنان لايبالى بظلام الليل انى سار فيه فصار يصحب السيد عبد الله اذا اراد الانتقال

من بلد الى بلد فى الليل الحالك، ويتجشم معه اضيق المسالك ولم يزل عبدالله كذلك حتى انتقل الى صديقه الاديب الشاعر محمد شكرى المكى كاتب المركز بدسوق

وانتقل عبد الله مع زوجته عند صديقه محمد شكرى مدعيا انه ابن عمه اتاه زائرا من الحجاز وسمى نفسه عليا اليمنى فمكث نحو ستة اشهر ثم انتقل بمفرده الى شباس الشهداء ولحقت به زوجته بعد عشرين يوما

وظل السيد عبد الله على هذه الحال من التنقل والاختفاء حتى رآه جاسوس ارشد اليه فقبض عليه البوليس وسألوه عن اسماء الذين اختفى عندهم فلم يذكر اسما واحدا منها . وانتهى الامر بنفيه خارج القطر .. ونقل بعد ذلك السيد عبد الله الى يافا منفيا ثم جاب هناك البلاد الفلسطينية

ولم يزل مقيما بيافا حتى مات الخديو وتولى عباس باشا فصرح له بالعودة الى مصر .

وعاد عبد الله الى القاهرة وانشأ مجلة الاستاذ . وحدث ماحدث بين الخديو والانجليز فقام عبد الله يستثير الهمم والنفوس حتى احفظ عليه المستعمرين فوقفوا مجلته واعادوه الى يافا منفيا . وما كاد يستقر به المقام فى يافا حتى امروا بابعاده من هناك فانتقل الى الاسكندرية . ولقد عانى الرجل شر ما يعانى الابى الكريم فسعى له الغازى احمد مختار باشا وعاونه حتى قبله السلطان عبدالحميد بدار السلطنة واستخدمه فى ديوان المعارف . فأمضى بقية ايامه شريدا عن وطنه حتى اشتد عليه السل ففارق الدنيا غير آسف عليها .

واذا بدا لاحد من قراء سيرته ان يسأل عن كتبه ومؤلفاته العديدة ، فلن يجد على ذلك جوابا الا انها ضاعت جميعها ! ! ولم ينشر منها على الناس غير جزء من « كان ويكون » وعلى السائل بعد ذلك ان يوقع المسئولية على كاهل الاستعمار وعلى الظروف العصيبة التى اضطربت فيها حياة ذلك البطل الشهيد .

باعث الثورة فى وجه الطغيان

ما أحوج الشرق فى هـذه الفترة العصيبة الى ان يستخرج صور مجده الباسلة العظيمة . ! وما أعوزه الى أن يجلوهـا أمام الناظرين واضحة الملامح ، رائعة التكوين ، تستنزل منهـا الامة العربية احسـاسها بكرامتهـا وشعورها بعزتها وحقوقهـا فى الحياة أمام الغاصبين . ان فى استعادة ماضى الكفاح بعثا للهمم الفتية ، وانهاضا للعزائم المتحفزة أن يخوض أربابها معركة الموت فى سبيل الحق والحـرية . كم عاش بيننا الفـرد فى سـبيل المجموع ؟ وكم التفت شعوبنـا حول أبنائها الاحرار وهم يلطمون وجوه الظالمين بالوحل ، ويدقون أعناقهم فى التراب ؟ وكم قام بيننـا دعاة الحـرية وحماة رسالة الحق ؟ وكم لقوا من الظلم ما يدك الجبال فى سبيل رسالاتهم الرفيعة ، طارحين وراءهم بهرج الدنيا وزخرف الحياة ، مستعذبين التضحية بالمال والولد والجاه ، غير قابلين عوضـا عما يحملون الى الشعوب من الخير والسعادة والمجد . هؤلاء هم اصحاب المثل العليا التى تتمخض الاجيال عن حركاتهم الاصلاحية فتحيا مبادئهم وتمتد رسـالاتهم من جيـل الى جيل ، تسطع بالنور فى الظلام ، وتدفق بالماء فى الجدب ، فتبل الارواح وتلهبها فى سبيل العمل على اسعاد المجاميع الانسانيـة التى تعيش معها . ما أحوجنا الى هؤلاء القادة المثاليين يسيرون بالشعوب الى خيرهـا وحقـوق أفرادها المظلومين ! ما احوجنـا

الى الذين يصيحون : ((خائن كل من يساوم على أبناء أمته ! ملعون كل من يتجر بالشعب من أجل راحته ، لانه يشتريها على حساب شقاء الملايين من أبناء الشعب الكادح المسكين))

فالى الخونة الذين تخنق جرائمهم أرواحهم يوم الحساب .. الى شاربى الدماء فى الجماجم ولاعبى النرد بالانفس .. الى الذين يستحلون فى سبيل شهواتهم الدنيا اهدار حقوق الناس .. الى هؤلاء واضرابهم على طريق الغواية والشر .. والى الذين يقابلونهم على الطريق السوى .. الى مكافحى الطغيان ورافعى المظالم عن كواهل الجماعات .. الى العاملين على النهوض بالشعوب الذين يكابدون العذاب ويقابلون الموت دون تحقيق رسالاتهم .. الى هؤلاء وأولئك جميعا نسوق ذلك الجانب من سيرة السيد جمال الدين الافغانى ، آملين ان يكون فيه الدرس للفريقين ، والعبرة للظالم ! والعزاء للمظلوم !

• • • • •

اذا كبرت العبقرية تشعبت اتجاهاتها وتنوعت تلك المسالك التى تسير فيها قواها ، وهذه حال السيد جمال الدين الافغانى ، فقد حمل رسالة الاصلاح فى كثير من اتجاهات الحياة ، فهو صاحب دعوة دينية ، وهو صاحب دعوة سياسية ، ولسنا هنا فى مجال التحدث عن دعوته الدينية ، ولكننا نحاول بقدر اتساع المقام ان نعرض جانبا من كفاحه السياسى فى سبيل تحرير الشرق والعمل على خير شعوبه واسعادها . ويمكن لنا أن نعرف قيمة الرجل اذا عرفنا مدى تأثيره فى الجماعة الانسانية التى حوله ، وحسبنا أن نثبت هنا ان المهمة التى اضطلع بها الشيخ محمد عبده ، والنهضة التى قام بها سعد زغلول هما بذرتان من بذور السيد جمال الدين الافغانى .

جاب الافغانى بلاد الشرق والغرب فهاله عند المقارنة أن يرى بلاده سجينة الخمول ، رهينة الكسل ، مرتعا للجهالة والتواكل والتاخر ، فى حين تدور عجلة الغرب نشيطة مجدة نحو المعرفة والتقدم ، ولم يكن السبب فيما آل اليه الشرق من سوء الحال غير تسلط المستعمرين عليه واستنزافهم لقواه ، يضاف الى ذلك تعسف الامراء الذين تناوبوا حكم بلاده ، وجورهم الشديد وتفردهم بالسلطان تفردا باغيا لايسمح معه لصوت الشعب ان يرتفع ولا لكلمته ان تعلو .. وقد وضع السيد جمال نصب عينيه أن يكافح الاستعمار الاجنبى وأن يناهض الحكم الاستبدادى داخل البلاد .

لهذه العقيدة وهب الرجل نفسه طول حياته وسخر جهوده حاثا الخاملين الى النهوض والمنقسمين الى اجتماع كلمتهم واتحاد رايتهم ، وكان فى كل ذلك يؤمن بان الحرية والاستقلال لاتؤخذان الا بحد السيف داعيا الناس الى الاستشهاد فى سبيل تخليص بلادهم من براثن المستعمرين

بداية الجهاد

وقف السيد جمال الدين الافغانى وهو فى الهند وقال لجماعة من زائريه :

« يا أهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين ذبابا مع حاميتكم البريطانية ، ومن استخدمتهم من ابنائكم فحملتهم سلاحا لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لايتجاوزون عشرات الالوف — لو كنتم مئات الملايين كما قلت ذبابا ، لكان طنينكم يصم أذان بريطانيا العظمى ، ويجعل فى أذان كبيرهم المستر جلادستون وقرا .
لو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل

كلا منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، واحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها الى القاع ، وعدتم الى هندكم احرارا »

قال هذه الكلمات بعد أن أرغمه الانجليز على مغادرة الهند ، وسيروه الى السويس ، فنزل منها الى القاهرة وظل فيها أربعين يوما كان ينتوى خلالها السفر الى الحجاز ، ولكن السلطان عبد العزيز دعاه الى الاستانة ، بعد ان سمع عنه ماسمع من رفعة الشأن وجلال القدر وعلو المكانة . وصل السيد جمال الدين الى الاستانة سنة ١٨٧٠ ، فاكرمه السلطان ، وتالفت حوله حلقة من عشاق أدبه وعلمه ، وعين عضوا فى مجلس المعارف ، فاراد أن يقوم باصلاح التعليم . ولكن حساده تكاثروا من حوله ، فرماه شيخ الاسلام بالالحاد . وحينئذ ثار جمال الدين وغضب غضبة شديدة لهذا القذف ، وطالب بمحاكمة الرجل ... ولكن الدساسين أفلحوا فى العمل على نفيه . وانتهزها جمال الدين فرصة لبث مبادئه ، فتحدث مع زائريه وهو يتاهب لترك الاستانة عن السلطة المدنية والروحية قائلا : « كل شعب تلعب به الاهواء ، ويفرق شيعا وطوائف ، وتستحكم من افراده محبة الذات والانانية ، فيتجرون باسم الامة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع ، ارضاء له ، لينالوا بلغة من عيش - يكون كالانعام السائمة أو أضل سبيلا »

ثم قال : « اذا ساز الدين فى غايته الشريفة حمدته السلطة المدنية بلا شك . واذا سارت السلطة المدنية فى الغاية المقصودة منها وهى العدل المطلق حمدتها السلطة الروحية وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان الا اذا خرجت احداهما من المحور اللازم لها ، والموضوعة لاجله »

الى مصر

عاد جمال الدين الى مصر فى ربيع عام ١٨٧١ ، وكانت شهرة جمال الدين تعم البلاد فلا عجب ان استقبله جمهور كبير من



المتادبين وعشاق العلم وطلاب الحكمة . وقد أجرت الحكومة عليه مرتبا سنويا مكنه من الاستقرار ، فالدعوة الى الاصلاح كما سياتى . وقدمكث جمال الدين فى مصر ثمانى سنوات كان بيته فيها حلقة تتالف من عشاقه ومريديه وكان هو يبث تعاليمه بين هؤلاء وقد حمل على الاستعمار الاجنبى حملة كان صداها ظهور سعد زغلول ، وحمل على التأخر الثقافى حملة كان صداها ظهور الشيخ محمد عبده .

وعلى هذا المنوال كان تاثير جمال الدين فى تلامذته ومريديه حاثا اياهم على التوجه الى الحرية والحق فى كل سبيل من سبل الحياة .

وكانت مصر فى تلك الايام تجتاز فترة عصيبة ، اذ بلغت قروضها من الدول الاوروبية نحو خمسة وتسعين مليونا من الجنيهات . وقد تبع ذلك تنازل مصر عن كثير من حقوقها للاجانب حتى أطلقت ايديهم فى شئونها الداخلية . ولم تكن الحكومة فى ذلك الحين الا مرغمة على فرض الضرائب الباهظة التى أثقلت كواهل الفلاحين . وهنا يظهر السيد جمال الدين ويخطب فى تلامذته محذرا اياهم من ضرر التدخل الاجنبى فى أمور البلاد . وكان يجوب الشوارع وتلتف حواليه جماعات من الناس فيقول : « انكم معشر المصريين قد نشاتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وانتم تحملون حب الفاتحين ،وتعنون لوطأة الغزاة ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وانتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم ، التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم ، بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم اعصاب تتآثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول . ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب

والاكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم باداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لاحس لكم ولا صوت ! انظروا اهرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة أبائكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم أن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم .. اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقى الامم أحرارا ، وموتوا مأجورين شهداء »

وكان السيد جمال الدين يؤمن بان نهضة الامة لا يمكن أن تتم الا على ايدى الاحزاب ولكن مصر لم يكن فيها فى ذلك الحين حزب واحد ، فاراد السيد جمال ان يستنصر بالمحفل الماسونى فى سبيل استنقاذ المظلومين والدفاع عن حقوق الفلاحين ومواجهة عسف المستعمرين . غير ان الماسونيين لم يوافقوا على الاشتغال بالسياسة فقال لهم السيد جمال : « اذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، واذا لم تستعمل آلات البناء التى بيدها لهدم القديم وتشييد معالم الحرية والاخاء والمساواة ، واذا لم تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة » . ثم قال : « ان اول ما شوقنى للعمل فى بناية الاحرار عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، اخاء ! وغرض هو منفعة الانسان ، والسعى لدك صروح الظلم وتشييد معالم العدل » .

ولكن السيد جمال أيقن بعد ذلك انه لايستطيع العمل مع المحفل الماسونى لتردد أصحابه . وما لبث بعد ذلك أن ألف مع نخبة من الساسة والادباء الحزب الوطنى عام ١٨٧٩ . وقد تكونت جمعيات وطنية أخرى فى ذلك الحين فكان السيد جمال الدين

أول مؤسس للحياة الحزبية السياسية فى مصر . وفى تلك الايام كادت المجاعة أن تنتشر بين الفلاحين ، وساءت حال المصريين سوءا لا حد له . قال المستر بلنت فى كتابه التاريخ السرى يصف تلك الحال : « وكان من النادر ان يرى الانسان شخصا فى الحقول وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره شىء أشبه بالقميص وكان الذين يملكون العباءات بين مشايخ القرى قلائل معدودين . وقد ازدحمت المدن فى أيام الاسواق بالنساء اللواتى يبعن ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الروم . وذلك لان جباة الضرائب كانوا يتربصون بهن فى القرى والسياط مرفوعة فى أيديهم » .

وقد كان السيد جمال الدين فى هذه الفترة نهبا للتأثر والحزن لهذه الحال اليائسة التى وصل اليها الشعب المصرى . فكان يقوم فى الناس خطيبا وهو يقول : « **أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت ماتسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لاتشق قلوب المستعمرين ؟ لماذا لاتشق قلب الذين يأكلون ثمرة اتعابك ؟** »

وحدث بعد ذلك أن أصدر الباب العالى أمرا باقالة الخديو اسماعيل ، فتولى مكانه ابنه توفيق باشا ... وقد أراد المستعمرون وأرادت الظروف العصيبة أن ينفى جمال الدين من مصر بعد أن ربى فيها عقولا وأنمى قلوبا . وأقام جمال الدين فى مدينة «حيدراباد » وهناك بلغته أنباء الثورة العرابية . وماكاد يستقر به المقام فى الهند حتى أخذت تجيش فيها الثورة ، فنقله الانجليز الى « كلكتا » وشددوا عليه الحرس . ثم أفرجوا عنه بعد فشل الثورة العرابية .

الى الغرب

اتجه جمال الدين بعد ذلك من الهند الى لندن ، والتف حوله نخبة من المفكرين الانجليز . ولكن بقاءه فى لندن لم يمتد فتركها الى باريس . ودارت هناك محاورات بينه وبين « رينان »

وجمع من الكتاب الفرنسيين حول العنصرية والاسلام والعلوم كان فيها جمال الدين فارس الحلبة . وقد لحق بالسيد جمال الدين فى باريس زميله الامام الشيخ محمد عبده .

قال اللورد « سالسبرى » للسيد جمال الدين فى اجتماع عقده بينهما المستر « بلنت » : ان بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رايك قدره ونحب ان نسير مع حكومات الاسلام بمودة وولاء ، على قدر ماتسمح لنا به الظروف والاحوال ، لذلك راينا ان نرسلك الى السودان سلطانا عليه ، فتستأصل بذور فتنة المهدى ، وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه » . فقال جمال الدين : « تكليف غريب ، وسفه فى السياسة مابعده سفه . اسمح لى ياحضرة اللورد ان اسألك : هل تملكون السودان ، حتى تريدوا ان تبعثوا اليه بسلطان ؟ » ثم قال : «ان الاصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق ادخاله وماتبحث له من الوسائل ، فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، الفت نظرها ، ونظر كبير رجالها حضرة اللورد ، الى ايرلندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الاصلاح لبلادهم . فلماذا لاتجيبون سؤلهم ، وتصلحون أمرهم ؟ هم اقرب اليكم من حبل الوريد ، وبينكم وبينهم من الجامعات ما هو معدوم لكم فى مصر والسودان وغيرها من ممالك الشرق» . ولم يكن غريبا بعد ذلك ان تمتد الجفوة بين الرجلين وان يتابع جمال الدين كفاحه فى باريس .

العروة الوثقى

انشأ مجلة العروة الوثقى كى يعبر بين صحائفها عن آمال الشرق المغلول ، مدافعا عن الحقوق الضائعة مطالبا بالعدل والمساواة والاخاء بين الناس ، مقويا الاواصر بين الشعوب الاسلامية ، وحسب الذين يطالعون العروة الوثقى أن تستجيش آلامهم وتتحفز عزائمهم حين يقرأون :

« بكائى على السالفين ، ونحيبى على السابقين ، أين أنتم ياعصبة الرحمة وأولياء الشفقة ، أين أنتم يا اعلام المروءة وشوامخ القوة ، أين أنتم يا أهل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة ، أين أنتم ياخير أمة أخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أين أنتم أيها الامجاد الانجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ماأتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، أنحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقتكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا أشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب اسفا ، وتحترق الاكباد حزنا ، أضحوا فريسة للامم الاجنبية ، لايستطيعون ذودا عن حياضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال الى سواء السبيل ؟ » ثم يصرخ صرخة مريرة ، وكان قارىء العروة الوثقى يحس قلب الرجل وهو يحترق فى هذه الصرخة قائلا : « ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه ، ملعون من يبيع اهل ملته لحطام يلتذ به ، ملعون من يمكن الاجانب من دياره ، ملعون من يختلج فى صدره ان يلحق عارا بامته ليتمم ناقصا من لذته .. هيهات ، هيهات ! ابظن مريض القلب انه سيترك حتى ياتى هذا المنكر ؟ أيظن انه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ؟ »

ولم يكن بد للمستعمرين ان يحاربوا العروة الوثقى وان يحولوا دون دخولها الى بلاد الشرق عاملين على مصادرتها فى كل مكان ، ولكن الاحرار من ابناء البلاد العربية كان لايعوزهم ان يحتالوا بكل الوسائل على اقتناصها والتهام ماتفيض به صحائفها من صرخات حارة تستحث همم الشرقيين وتوقظ عزائمهم لاهبة مستعرة عنيفة . ولكن السيد جمال والشيخ محمد عبده لم

يستطيعا ان يواصلا اصـدارها لمحاربة الانجليز لهابكل وسائلهم الاستعمارية

الى ايران

سافر جمال الدين الى ايران وكان الشاه ناصر الدين قد اراد ان يتشرف بانتساب جمال الدين الى بلاطه فجعله وزيرا للحربية، ولكنه حين لمس فيـه الجراة والاندفاع للعمل فى صالح الشعب، خشى بأسه، واحس انه اقدم على خطأ شديد، واحس جمال الدين بشعور الامير، فرحل الى « موسكو » تاركا وراءه ايران، ثم الى « بطرسـبرج »، وراح يلقى المحـاضرات فى الاندية والمحافل.

واخذ يكتب فى الصحف عن سياسة الشرق والغرب. وقد دام بقاؤه فى روسيا اربع سنوات كان يدعو فيهـا الروس الى مناصرة الاقطار الشرقية فى مكافحة الاسـتعمار. وقـدم الى « بطرسبرج » الامير ناصر الدين وطلب مقابلة السيد جمال الدين فرفض. وقد اراد القيصر ان يعلم اسباب الخلاف بين الشاه وجمال الدين فقال له جمال الدين انه يرى من الضرورى ان تشترك الامة فى حكم نفسها وان ذلك نظام لايرضى عنه الشاه. فقال القيصر انى أرى الحق فى جانب الشاه، اذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكمه فلاحو مملكته ؟ فاجاب جمال الدين : « أعتقد يا جلالة القيصر ان الملايين من الرعية اذا كانت أصدقاء للملك خير من أن تكون أعداء له تكمن فى صدورها سموم الحقد ». وكان ذلك آخر لقاء بين القيصر وجمال الدين. وسافر جمال الدين قاصدا الى باريس فالتقى به الشـاه ناصر الدين فى « ميونـخ » وظل يلح عليه أن يعود ويشتد فى رجائه حتى قبل، ورجع جمال الدين وهو ممتلىء النفس بالاصلاح قوى الامل فى اقامة الدستور بين الامة. فاستدعاه الشاه وسأل عن خلاصة ذلك الدستور وقال له بعد أن اطلع عليه : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك من ملوك الفرس كاحد أفراد الفلاحين ؟ » فاجاب جمال الدين :

« اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وانفذ واثبت مما هى عليه الآن »

وحينئذ ثار الشاه على جمال الدين وأمر بخمسمائة فارس فانتزعوه من فراشه . قال السيد جمال الدين : « وسحبونى على الثلج الى دار الحكومة ، بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة ثم حملنى زبانية الشاه ، وأنا مريض على برذون ، مسلسلا ، فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتنى جحفلة من الفرسان الى « خانقين » على الحدود العراقية »

بعد ذلك خلت البلاد للشاه يعيث فيها فسادا ويتاجر بابنائها ووطنهم كما يتجر فى السائمة فهو يبيع مصادر ثروتها وخيراتها للاجانب المستعمرين . وهو يغل أبناء الوطن فى قيود الطامعين الغاصبين . ولكن جمال الدين كان له بالمرصاد ، فاعلنها عليه حربا طاحنة لا تنتهى ، واخذ يلقى المحاضرات فى البصرة عن مباذله ومفاسده ، مبينا ما انتهى اليه الشعب فى عهده من الجوع والبؤس والفاقة الشديدة . وكان يراسل صديقا له فى ايران هو الحاج « ميرزا محمد حسن الشيرازى » ويكتب له الكتب المطولة يعدد فيها مفاسد الشاه ، ويقول : « انه باع الجزء الاعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لاعداء الدين : المعادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب الى جميع أرجاء المملكة ، وما يحيط بها من البساتين ، والحقول وما يتبعها من الجنائن والمروج ، وما على اطرافها من العمارات والفنادق ، والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين ، انى وجد وحيث بنيت ، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع فى جميع أقطار البلاد والصابون والشمع والسكر

ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك ما البنك ، هو اعطاء زمام الاهالى كلية لعدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه اياهم ، وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان » .

ثورة الشعب الايرانى

وقد بلغت ثورة الشعب الايرانى فى ذلك الحين حدا لا يمكن وصفه.

وكان للسيد جمال الدين الدور لاول فى اثارة الناس على الشاه وفى دعوتهم الى المطالبة بحقوقهم . وقد اصر جمال الدين فيما بينه وبين نفسه ان يحطم ذلك النير الذى يرهق كواهل الناس فرحل الى لندن واخذ يساهم فى تحرير مجلة شهرية اسمها ضياء الخافقين . شن فيها حملات متواصلة على شاه فارس ، وقد جاء فى العدد الاول منها الصادر فى اوائل ١٨٩٢ دراسة كتبها السيد جمال عن احوال فارس نقتطع منها هذه الكلمات : « لاحد فى الاقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس ، ان الجرائم ليست لها حقائق احرزها الشرع وحكم بها العقل ، كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر ، لا دستور للحكومة ولا نظام ولا قانون ، كل يفعل مايقدر عليه وتدعو شهوته اليه ، ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه ، يأخذ الجار بالجار ، ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل ولا ذنب ، كل مسئول لديه عن الكل » . . وعلى هذا المنوال اخذ جمال الدين يكافح الشاه ، وكان لكتاباته تلك صداها البالغ فى نفوس الايرانيين، واحس الامير ناصر الدين بالخطورة التى تتربص به ، فارسل سفيره الى لندن يستميل السيد جمال اليه عارضا عليه ما يشاء من المال ولكن جمال الدين قال للسفير :« والله لا ارضى الا ان يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوارى فى القبر » .

وانتقل بعد ذلك السيد جمال الدين الى « الاستانة » وقد اشتدت ثورة الشعب الايرانى فى ذلك الحين على الشاه « ناصر الدين » فانقض عليه وهو فى جامع عبد العظيم بطهران « رضا الكرمانى » احد تلامذة السيد جمال الدين وطعنه بمدية فى يده

وصاح : « خذها من يد جمـال الدين » وحين سمع السيد جمال بذلك النبأ قال : « قد تحقـق الآن ان الامة الفارسية لم تمت، وانها امة لن تنقطع منها الآمال ،لان الامة التى يقوم من ابنائهـا من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لاتكون قـد فقدت جراثيم الحياة »

فى الاستانة

ظل السيد جمـال الدين فى الاسـتانة محـاطا بالجواسيس والحاسدين الذين يحيكـون من حوله الدسائس ، وقد خشى بأسه السلطان عبد الحميد فبث مـن حوله العيون ، وكانت العلاقات بينهما تفتر حينا وترتبط حينـا آخر ، وكلما ضاق السيد جمال الدين بالحياة فى الاستانة واعتزم الرحيل عنها ، خشى السلطان ان ينضم الى جماعة الثوار الاتراك فى فرنسا ، فيعود ويرغمه عـلى البقاء فى بلاطه . وهكـذا قضى السيد بقية حياته مراقبا اشـد المراقبة ، وقد فتح داره كعبـة لرواد العلم وطلاب الثقافة على اختلاف انواعها ، حتى اصيب فى عام ١٨٩٧ بالسرطان فقضى عليه، ولم يسر فى جنازته غير ثلاثة من اصدقائه ، **اذ أصدر السـلطان أوامره بان يدفن فى غير احتفال ،وقد شاعت الاقاويل المختلفة حول مصرعه ، ولكن لم يجزم بواحد منها .. مات السيد جمال الدين ولكن مبادئه حية لاتموت .**



صوت الشعب ومكافح الطغاة

اذا الشعب يوما أراد الحيا ... ة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليــــل ان ينجلى ... ولابد للقيـــد ان ينكسر

* * *

صدق الشاعر ..

ومن كان لا يؤمن بما ينطوى عليه هذان البيتـــان من معنى ثابت وحقيقـة أكيدة ، فليقلب معى صفحات التاريخ المصرى الحـافل المشرف لنستخرج من قلب ذلك التـاريخ مثلا صادقا حيا يؤيد هـذا المعنى ، ويؤكد هذه الحقيقة اجلى تأييد واقواه.

اجل ، ان الذى يطـــالع تاريخ مصر لا يملك الا الاعجاب البالغ بروح ذلك الشعب العظيـــم ، وبعزيمته الماضـــية النـافذة ، وبارادته الحديد التى تهوى اذا شاءت بالقمم ، وتعلى اذا شاءت السفوح . وان المتتبع للحركات القومية فى هذا الوطن العظيـــم ، ليبهره وياخذ عليه لبه ، مايكمن فى نفسية الشعب المصرى مـن الاستماتة فى الصراع ، والاستشهاد فى مقـاومة الطغيان ، والموت دون ما يبتغى الغاصبون .. فكم فى أوعية التاريخ من أمثلة باهرة تخطف ابصار الجاحدين ، وتدلهم على أن الشـــعب المصرى الباسل يعلى فوق الطغاة كلمته ، وينفذ قبـل مشيئتهم ارادته ، فهو وحده صاحب الوطن .

والحقيقة التى قد تخفى على بعض الذين لا يبصرون الشمس

فى وضح النهار ، هى ان الشعب المصرى تمر عليه فترات متعاقبات يبدو فيهـا كأن روحه المعنوى قد انطفأ ، وكأن حماســه قد تبخر ، وكأن اتجاهه نحو الحق والعدل والاقدام ، لم يعـد الا تخبطا وتعثرا فى طريق الجمود ، ولــكنه - ويالبتهم يعلمون - يستجمع فى هـــذه الفترات العصيبات حماســة للوثوب ، وقوته للانقضاض ، فاذا هـذه الالوف المؤلفة ، وكأن فى دمائها السعير ، تجتـاح الظلم وتدق اعناق الظالمين .

* * *

الى عصر المماليك أيها القراء .

الى حكم العثمانيين فى مصر ، وقد تربصت بهم طعنات الروس فى أوربا ، وبلبلت يقظتهم مداورات النمسا ومحاوراتها

الى عصر المماليـــك ، باذخى القصور ، يستحلون فى سـبيل مطامعهم تجويع الملايين والملايين من أبناء ذلك الشـعب الباسـل المنكود ... الى العراة والكلاب كاسية !! والى الجياع والحيوانات متخمة !! والى الجهلة المحرومين من نور العلم لانه مقصـور على شرذمة المماليـــك !! .. والى الكادحـين فى الحقـول يشربون العـــرق وياكلـون التـراب ، وتستنزف قواهـم تلك الفئـة الطاغية التى لاهم لهـا سـوى اغتصاب الحـكم لابتزاز الاموال ... الى هؤلاء الرازحـين تحت عبء الضرائب تلهب ظهـورهم السياط ، ويقادون الى حتوفهم كالسائمة فى ايدى الجزارين

لقد كانت الدولة العثمانيـة تعانى فى تلك الفترة سكرات الموت الاكيد ، وما كان حـكمها لمصر بعد السلطان سليم الاول غـير حلقات متلاحقات من الاضطراب الشديد . فقد اخـذ خصومها فى اوربا يناوشونها ، ويشـنون عليها من حروب الاعصاب ماشغلها من ادارة الحكم فى مصر بقبضة تكفل لها بقاء النفوذ . وما كان

هم الدولة العثمانية فى غير جمع المال من مصر . فما يبتغى المستعمرون غير ان يمتصوا دماء الشعب وثرواته ومحاصيله وقواه ؟ وماذا يعنيهم اذا الشعب ظل فقيرا معدما ؟ أو اذا عاش مقصيا عن نور العلم ، نهبا لخرافات الحياة واباطيلها المظلمة الكالحة ؟ ماذا يعنيهم من امر ذلك الشعب وهم ينظرون اليه كما ينظرون الى البقرة الحلوب يستدرون لبنها ويأكلون لحمها ؟. انهم يريدون المال .. فلتحترق قوى الناس ، ولتنقلب مصر رأسا على عقب فى أتون من الاضطراب المستعر ، وليتضور أبناء مصر جوعا وفاقة وضعفا ... لذلك كانت الدولة العثمانية ترسل الوالى الى القاهرة لاقصد له غير جباية الضرائب وارسالها الى القسطنطينية ، وكانت هذه السياسة العقيمة من جانب القسطنطينية سببا فعالا فى تقوية المماليك ومناوأتهم المستمرة للباشا الوالى . ويشهد القرن الثامن عشر بان كوكبة من أمرائهم استطاعت أن تقبض على يد السلطة فى مصر تدريجا ، وان تنازع ممثل السلطان العثمانى وتقصيه عن الحكم الفعلى ، وكان « اسماعيل بن ايواظ » أول من دانت له الديار المصرية ، وأول من استطاع ان يحكم مصر حكما مطلقا دام ثلاث عشرة سنة

ويمكن — اذا علمنا باغتياله بعد ذلك — أن نتصور تنافس بعض المصريين فى ذلك الحين ، وتطاحن المماليك على الاستئثار بالحكم ، كل يود السلطة لنفسه دون سواه ، يخوض فى سبيلها بحرا من الدماء ، ويدك أكواما من العظام والاشلاء . ولم تنتقل السلطة بعد موت « اسماعيل ابن ايواظ » الى ايدى العثمانيين ، لان المماليك اخذ ينقض منهم الخارج عن السلطة ، على الامير الحاكم . فما يذهب واحد منهم الا ليعتلى آخر مكانه .. وهكذا دواليك . . . وكانت تشتعل بين الفرق حروب طاحنة ومشاحنات ثائرة متصلة تحتدم نيرانها بين الطامعين فى

الحكم من الامراء . وكان الشعب فى ذلك العهد الاسود مبعدا عن التدخل فى شئون السياسة لا يرتفع له صوت ولكنه كان يجد متنفسا ومجالا للتعبير عن أرائه وأمانيه ومثله العليا فى الطرق والمساجد . وقويت على الناس المظالم وهم ضحايا ابرياء لهؤلاء السفاحين الذين لايبتغون سوى الحكم طمعا فى المال وحده ، لاتدفعهم اليه رسالة، ولايحسون شجون العامة ، ولايحزنهم ماآلت اليه الطبقة الكادحة الشقية من سوء المصير ومغبة التقدير ، والتارجح فى ظلمات الجهل ، والتكبيل فى قيود العوز . لقد آن لتلك العماية السوداء ان تنجلى عن العيون . وقد آن لذلك الانين الخافت ترسله الملايين ، ان يتحول الى صوت واضح يطالب بالحقوق .. ثم يقوى ويقوى الى أن ينقلب صرخة رهيبة قوية مدوية تكاد تنخلع من خشيتها قلوب الظالمين

الارض أرضهم ، والزرع زرعهم ، وهم لايجنون منها مايسد أرماقهم وانما يغتصب ماتجود به الارض ويحمل الى قصور الامراء والمماليك لتوزيعه على جنودهم وجباة الضرائب . وقد ابتليت البلاد بحكم طاغيتين من الامراء هما مراد وابرهيم . وكانا يتوزعان السلطة ويتقاسمان الغنائم ... الغنائم الصبيغة بالدماء ، وكأن صرخات الشعب لاتكاد تصل الى أذانهم حزينة اليمة حتى تردها من حيث أتت جدران تلك القصور الباذخة السميكة . وقد اشتهرا بافحش الفجر وابشع الظلم واخس الطباع . وكأن القضاء اطلق هذين الطاغيتين على الناس كالريح الزعزع تقتلع الاشجار من الحقول ، وتثير فى الافاق سحائب غبراء تنعقد كالظلام الغائم فتستر النهار البهيج وتشيع الرعب والاضطراب فى نفوس الاحياء . ولم تكن تلك المظالم المتعاقبة ، ولا ذلك العدوان المتصل الحلقات ليزيدا أبناء مصر الا استجماعا للهبوب وتحفزا للمطالبة بحقوقهم فى الحياة

وفى ذلك الحين كان السيدعمر مكرم فى نقابة الاشراف ابان حكم ابراهيم ومراد . وكان بقاؤه فى تلك الدولة الطاغيه نحو خمس سنوات ، يثير العجب ويبعث الدهشة . ذلك لان هذا الرجل كان وحده القلب النابض والروح المحرك والباعث القوى لاستثارة الناس الى حقوقهم وقيادتهم الى التحرر من ربقة العبودية .

وقد اتضح للسيد عمر مكرم ان هذين الاميرين لا يستطيعان حماية الشعب حين توافدت الرسل تحمل نبأ الغزوة الفرنسية للاسكندرية ، ذلك لما شاهده بعينيه من انهما سارعا الى حماية كنوزهما وأموالهما ، وقد ظنا ان ذلك الغازى شأنه كشأن سائر الذين هاجموا مصر من الرعاع والبرابرة ، فأقسما أن يحطما ذلك العدو تحت سنابك الخيل ولكن الانباء الواردة من الاسكندرية زعزعت ذلك القول وزحزحت عن قلبيهما اليقين . فلم يكن ذلك العدو مثل سابقيه ، انما تحرسه المعدات الحربية الحديثة التى يذود عن نفسه بها والتى يقتحم بها الاسوار المنيعة والقلاع الشامخة ، انه جيش نابليون بونابرت يزحف فى اوربا طالبا فى مصر مفتاح الشرق وجنته . وقد سادت البلاد ألوان من الاضطراب والحيرة خاصة بعد فرار مراد وفشله فى مقاومة العدو . ولم يجد المصريون أمامهم غير ابراهيم وهو صورة من الجبن قبيحة ، خائر العزيمة واهن الروح . وتطلع الشعب فلم يجد فى يده سلاحا ، ولو ان فى انفس ابنائه مراجل تغلى وعزائم تثور . وهنا ارتفع صوت السيد عمر مكرم واستطارلبه من الحماس وراح يجأر فى الجماهير مطالبا أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم فتجمع من القاهريين عدد كبير تحت قيادته ، وساروا بأسلحتهم الساذجه وعصيهم وطبولهم لملاقاة الفرنسيين . ولكن ما لبث أن فرق الجيش الفرنسى بقايا جيوش ابراهيم ، وتناثرت أمام الناس أسلحتهم وتحطمت عزيمتهم فولوا الادبار .

ماذا يصنع هؤلاء السذج والبسطاء وهم عزل من السلاح الا أن ينكصوا على أعقابهم مرتدين؟ لقد ملكت افواه الطرق جيوش الفرنسيين ، وزحفت متثاقلة ثابتة على قلب القاهرة ، فما كنت المرسلات تزأر بالحنق والرعب واستنكار الهزيمة ، وعانت القاهرة ليلة ليلاء لم يذق فيها المصريون طعم النوم ، وحين طلعت ترى غير الهلع على الوجوه ، وما كنت تسمع غير الصيحات شمس الصباح كان شيوخ البلد وعلماؤها قد استتب رأيهم على اعلان التسليم ، وأراد قائد القوة الفرنسية أن يجتمع بزعماء الشعب وطلب فيمن طلب السيد عمر مكرم ليفاوضه مع سائر الشيوخ ، ولكن .. أنى له ذلك ؟ أيرضى السيد عمر أن يفاوض فى تسليم بلاده للعدو الغاصب ؟ ان الموت أهون على نفسه من هذا الموقف الشائن ، ولو أنه أراد مالا أو ابتغى جاها لعاد خافض الرأس مطأطىء الجبين ، ولكنه استجاب الى صوت ضميره الوطنى ، وآثر أن يترك وراءه أملاكه الشاسعة وأولاده وأسرته مفضلا الهجرة الى الشام ، هاجر فى السر وهو يعلم كل العلم ان الفرنسيين سوف يبددون ماله من بعده .. وقد كان فى وسعه اذا شاء أن تتكدس جيوبه بالذهب وتنتفخ أوداجه من الجاه ، اذا هو سالم الفرنسيين وركن معهم الى الدعة . هاجر الى يافا وفى ذهنه صورة ذلك الصراع الرهيب الذى اشتعل بين المصريين والفرنسيين ودوت فى سمعه تلك الصيحة المجنونة (الى الفرار .. الى النجاة) تلك الصيحه التى كانت تتناقلها أفواه القاهريين وينتزعون أقدامهم من أوحال الطريق فى المعمعة ناكصين على أعقابهم تحت مطر الشتاء ونيران العدو .. ألوف القتلى وألوف المجروحين تنتظمهم فى تصورات السيد عمر سلسلة دامية التضحيه دامية الفداء .. لقد صحب السيد عمر جيش ابراهيم بك الى يافا واستقر به



المقام هناك عازما كل العزم أن يواصل جهاده حتى النهاية وأن يذكى روح الحماس والفتوة فى قلوب المصريين

ولكن بونابرت فتح يافا بجيوشه الزاخرة وبعد أن سلم له اهلها ، قتل منهم نحو ستة آلاف وارتكب الجيش الفرنسى هناك من الفظائع والاهوال مايطير بالعقول ويطيح بالافئدة . ولكن ذلك كله لم يرهب السيد عمر مكرم فيجعله يعود الى محالفة الفرنسيين منتحلا فى رجعته انهم ارغموه على العودة .. بل مضى السيد عمر مكرم فى سبيله القويم على عقيدته الثابتة واخذ يتحين الفرصة لمواصلة الجهاد .. وعاد الى القاهرة بعد ثمانية اشهر من الاغتراب المفعم بالشجن والامل . الشجن على ما آلت اليه بلاده من تمزق فى ايدى الغاصبين .. والامل فى ان يهب ابناء مصر هبة واحدة وقبضة واحدة لاكتساح هؤلاء عن ديارهم . وكانت دولة ابراهيم ومراد قد دالت ، ودارت عليهما الدوائر وانتقل زمام الحكم الى ايدى الفرنسيين ، ولكنهم لم يستقر بهم الحكم عدة أسابيع حتى فاجأهم الانجليز ومنيت الحملة الفرنسية بفشل ذريع اذ حطم الانجليز اسطول فرنسا فى موقعة ابى قير وانتهز المصريون هذه الحال السيئة التى تردى فيها الغاصبون فشنوا حملة قوية عليهم وكان أكبر زعمائها السيد بدر الدين المقدسى وكان المرجل الذى ظل يغلى طول مدة الحملة الفرنسية قد شاءت له هذه الفرصة ان ينفجر وقد عاد السيد عمر والشعب على هذه الحال من اتقاد النفوس بالثورة وتطاير العقول من الشعور بالاستعباد . عاد ولم يقبل منصبه فى نقابة الاشراف ولم يفز من الحاكم الفرنسى الا بالقليل من املاكه التى استولوا عليها عنوة وقسرا .. ولم يفلح الفرنسيون فى استمالة هذا الرجل العنيد فآثروا أن يتركوه وسبيله ، ولم يكد يمضى على نزول السيد عمر فى القاهرة

اسبوع واحد حتى طارت الاخبار بأن حملة تركية هبطت الى الاسكندرية لتخرج الفرنسيين من الديار المصرية فأسرع نابليون الى القاهرة وهو مفجوع الخيال متهدم الامل مفقود الرجاء ، لقد كان كل ما وهمه نابليون سرابا خداعا .. والخير كل الخير ان يغادر مصر وما عقده عليها من آمال .. وتسلل القائد الغازى خفية الى فرنسا آمرا ان يضطلع بالقيادة بعده (كليبر) ، وكان وقع سفر نابليون ذا اثر كبير فى نفوس المصريين اذ أتاح لعواطفهم ان تتنفس .. وتوالت بعد ذلك المعارك فالتحم الجيش الفرنسى بجيش الترك الذى ارسل للاستيلاء على القاهرة ودارت الموقعة طاحنة عنيفة بين الفرنسيين والاتراك وانتهت بانتصار كليبر عند المطرية ، وضاق الشعب بهذه الحياة المضطربة واحس المصريون انهم يعيشون على شفا جرف هار من اللهب .. فأين ، اين الزعيم ؟ اين من تتكتل تحت قيادته هذه الجموع الزاخرة ؟..

لم يكن هنالك غير السيد عمر مكرم ، ذلك النقى التقى الشريف، انه واحد من ابناء الشعب النابغين فهو لذلك قبلة الانظار وموئل القلوب . ان رأيه الحاسم الراجح وارادته الماضية الصادقة خير نبراس لهؤلاء الضالين التائهين . وكانت الناس تهتف باسمه فى طرقات القاهرة فيشتد بهم الحماس وتلهب نفوسهم نيران الغضب للكرامة والثورة للوطن . وصاح السيد عمر مكرم صيحة، واشتعلت على اثر ذلك الثورة المصرية الكبرى التى شهدتها احياء القاهرة سبعة وثلاثين يوما كاملة . وكان السيد عمر مكرم فى طليعة الثائرين يوجه حركاتهم ويرعى حماسهم . وكان يوزع نهاره بين طوائف الثائرين يذكى نارهم هنا ثم يعدو ليستفز غضبهم هناك .. والسلاح ؟ الم يسعفهم احد بامداد السلاح فأنشاوا معملا للبارود ببيت قائدأغا فى الخرنفش . واقاموا فى حى المشهد الحسينى مصنعا حربيا يواصل فيه المصريون عملهم الليل

بالنهار وكأن القاهريين استحالوا جميعا فى تلك الايام الى ثورة مشبوبة عارمة تنشر الذعر والخراب فى أعين الاعداء وهم فى ذلك كله لا يستندون الى احد فى معونة انما يصنعون الموت ويبذرون الرعب بسواعدهم الفتية واسلحتهم الساذجة ..

الى متى تظل ترسف اعناقهم فى القيود ؟ ! الى متى يستنزف قواهم الغاصبون ؟ ! الى متى يستسلمون للويل يفرضه عليهم طغام الدخلاء . لقد كان الجزارون والعمال والفلاحون يتصايحون صيحة واحدة اما الحياة الكريمة أو الموت الكريم .. ولقد استطار لب السيد عمر مكرم من الفرح والغبطة وهو يشهد الحاج مصطفى البشتيلى وجماعة من التجار والصناع يقيمون المتاريس والمرابط ويدقون اعناق الفرنسيين العتاة تمتزج دماؤهم بالوحل وتتناثر عظامهم على الطرقات .

وكانت النيران تنطلق من فوهات المدافع يرسلها الفرنسيون على القاهرة .. ولم يجد الفرنسيون بدا من اظهار رغبتهم فى المفاوضة ومال الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى الى الاخذ بذلك الرأى حفظا للارواح فثار الاهالى عليهما ثورة عاتية ورموا عمامتيهما الى الارض وانهالوا عليهما سبا وتجريحا .!

وكان لا بد للحديد والنار ان ينتصرا والشعب المصرى منهما اعزل فاقتحم الفرنسيون القاهرة واستولوا عليها . وفى تلك اللحظة اثر السيد عمر مكرم ان يغادر بلاده على ان يراها تداس باقدام الاعداء . وقد بالغ الفرنسيون فى الانتقام من الابطال المصريين خاصة وان احدهم وهو سليمان الحلبى قتل القائد الفرنسى كليبر فاحرقوا ذراعه ومزقوا احشاءه والقوا بجسده الى الطير يمزقه قطعة قطعة ومثلوا باجساد الثوار وحتموا ان ترفع رؤوسهم المبتورة عن أجسادهم فوق العصى ليرتووا من الغل ولينعظ بها سائر الناس .

ولم يطل استبداد الفرنسيين بالشعب حتى عاد السيد عمر مع الصدر الاعظم يوسف باشا فاستقبله الناس استقبالا رائعا يفوق كل وصف .. ولم لا ؟ أليس هو صوت الشعب الذى يتجاوب صداه فى الافاق؟ اليس هو مكافح الطغاة ؟ . انه بلا ريب خير من يمثل نفسية الشعب وأبسل من يجأر بحقه .

اجتمعت بعد ذلك قوات الاتراك وحملاتهم وقدر بعدها لمصر ان يغادر الفرنسيون ارضها وتعاقبت بعد ذلك على الوطن محن متصلة فقد دخل جيش الاتراك وكان خليطا من اجناس متباينة بين شوام وترك وارناؤوط ومغاربة وكان هم ذلك القطيع ان يبحث عن الغنائم وان يتقاضى ثمن الخدمات التى اداها وكان ذلك كله على حساب المصريين وقد عجزت الحكومة فى ذلك الحين عن رد الايذاء الذى كان يوقعه ذلك القطيع بالناس . وتوافد على مصر فى تلك الفترة العصيبة المظلمة ولاة كثيرون ما يكاد المقام يستقر بواحد منهم حتى يخلعه الشعب . ودارت المعارك حامية الوطيس دامية الالتحام مجنونة السعير بين المماليك والولاة . وكان المماليك ينقضون ثم يرتدون ليستجمعوا قواهم ويأخذوا فى الانقضاض المرة بعد المرة . وكان الولاة يحوكون الدسائس وينصبون الشباك للقضاء على المماليك واذلال اعناق الناس . وكان يحتدم بين تلك المطامع المتناقضة قتال يعقبه قتال . وظلت مصر على هذه الحال الاليمة الى ان ولى الحكم احمد خورشيد باشا وقد جاء وهو يحسب الحال كما كانت .. يريد ان يأمر فيلبى الناس . ويريد ان يتكلم فتنصت الجموع وكان يضمر للمماليك حقدا شديدا وكراهية عميقة . وقد حدث ان أسرف خورشيد باشا فى جباية الضرائب من الناس فتوجه الشعب رافعا ظلامته الى السيد عمر مكرم الذى كان يحس قلبه

يذوب بين جنبيه حسرة والتياعاعلى تضحيات الشعب التى لم تثمر حتى الآن ، لقد كان السيدعمر مكرم يريد للشعب حياة حرة كريمة .. لقد كان يريد للشعب أن يحكم نفسه بنفسه وان ترتفع ارادته فوق كل ارادة وان يدوى صوته فوق كل صوت . فما الخير فى ان ينتقل امر ذلك الشعب من مغتصب الى مغتصب . وما الخير فى ان يلقى بزمامه من طاغية الى طاغية . الضرائب الثقيلة تبهظ ظهور الناس وقد عمد خورشيد باشا الى جبايتها بطرق فظة ، فنهض السيد عمر مكرم نهضته ، وقام قومته الابية مطالبا الوالى ان يكف عن ظلم الفقراء والمعوزين . فبادر خورشيد باشا حين أحس بسلطان الزعيم الشعبى والغى أمر جباية المال من غير القادرين على الدفع وكان بين قواد خورشيد باشا فى ذلك الحين محمد على الكبير راس العائلة العلوية وقد افلح محمد على فى ان يجمع حوله افئدة الناس وشعر بذلك خورشيد باشا فاشتم رغبة قائده فى الولاية على مصر ، فاقصاه على راس قوة الى الصعيد وكان الباشا فى ذلك الحين يدبر له المكيدة بوصول الامداد من القسطنطينية قبل عودة محمد على الى القاهرة ، كى يقضى بهاعلى قوة محمد على وجيشه وكانوا جميعا من الارناؤود . وكان يتعمد فى ذلك الحين ان يستميل قلوب الزعماء بزيارته لهم وعلى راسهم السيد عمر مكرم وهو يقصد بذلك ان يكتسب بعض وقت الشعب قبل ان تضطرم ثورته ويتأجج لهيبه وهو مازال فى انتظار المدد ولكن محمد على كان اذكى قلبا وانفذ خاطرا فبادر بالعودة الى القاهرة عندما وصلت الى خورشيد باشا الامدادات من تركيا وطالب محمد على امام الجيش الجديد ان يدفع الباشا مرتبات جنوده التى فات على دفعها زمن طويل . وكان لتلك الحركة اللينة الذكية التى قصدها محمد على أثرها الحاسم فى نفوس الجنود الجدد وقد آثروا بعدها ان لايقاتلوا اخوانهم الارناؤود . وقد ردهم عن ذلك القتال انهم جاءوا الى مصر طامعين فى اموالها وذخائرها وهم يرون الان امام

اعينهم سابقيهم من الجند يرسفون فى قيد من الحرمان المادى ولم يجدوا سبيلا الى نيل مآربهم غير السطو على الناس واستخلاص ما فى الدور والمنازل عنوة وسلبا . وقد راى الشعب بعد استشارة السيد عمر مكرم ان الخير كل الخير فى خلع ذلك الوالى الصغير خورشيد باشا وتولية محمد على بدلا منه .
وقال خورشيد باشا حين بلغه ذلك النبا وهو يصرخ من راسه كالمجنون : « لقد ولانى السلطان فلن يعزلنى الفلاحون » وكأنى بالسيد عمر مكرم يجيبه بصوت رهيب ان هؤلاء الفلاحين هم اصحاب الامر والنهى فى بلادهم يخلعون من يشاءون ويولون من يشاءون لادافع لارادتهم ولامعترض لما يريدون . ان هؤلاء الفلاحين هم الذين تتحرق اوصالهم فى لهيب الشمس وتتصبب جباههم فى جحيم الحقول وتتقوس ظهورهم من حمل الزروع .. ان هؤلاء الفلاحين هم الذين يهبون الباشوات والسلاطين السعة فى العيش والبذخ فى القصر والابهة فى الزى والصحة والامل والشباب . . فكيف اذن يقول خورشيد باشا قولته هذه الغريبة الشاذة ؟ »

لقد أراد الشعب أن يكون محمد على واليا على مصر ، وقد تم له ذلك بعد صراع عنيف مستمر لعب فيه السيد عمر مكرم اخطر دور وانبله وهو مبتهج لان امنيته تتحقق . . . ولسنا هنا فى سبيل سرد ذلك النضال الشاق الذى انتهى بتولية محمد على واعتراف السلطان بولايته وعزله لخورشيد باشا .
لقد عاد السلطان العثمانى فأمر محمد على بأن ينتقل الى سلانيك ثم هبت تلك الزعازع القومية وتجمعت تلك التيارات الشعبية الجارفة التى حطمت امر السلطان . واضطر محمد على ان يعتمد على جيشه فى الدفاع عن مصر ، الامر الذى

احنق السيد عمر مكرم وجعله يفكر فى ان استقلال الارناؤود بالعمل فى الجيش وضع يمس الكرامة المصرية وكان صريحا جهير الصراحة فاطلع محمد على باشا على ذلك ولكن الباشا لم يتقيد بما رای السيد عمر مكرم وانما نفذ ارادته سريعة حاسمة، وحدث بعد ذلك ان وشي بالسيد عمر مكرم الواشون فامر الباشا بنفيه وان كان يضمر له المودة والحب ، وأراد الباشا قبل أن ينفيه أن يعالج أسباب شكواه فرفض السيد عمر ان يفاوضه فى ذلك .. وظل على اساه وغضبته منفيا ، حتى انتصر ابراهيم باشا فى حرب الوهابيين فسر لذلك السيد عمر مكرم واراد ان يشارك المصريين فى الفخار بابن محمد على الكبير لانه واحد من المصريين فارسل الى الباشا تهنئته بذلك النصر الباهر ، وكانت تلك البادرة بداية صلح بينهما وفاتحة وئام وسلام، اراد الله بعدها لمصر ان تتحرر وان تمجد وان تسمو وان تستقل

***

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل ان ينجلى ولا بد للقيد ان ينكسر !

الثلاثاء .. الدامى .. المشئوم

تحفل كتب التاريخ بالوقائع الدامية التى يشهد بها العالم عدوان الانجليز على حريات الشعوب .

ومن يريد ان يستطلع هذه الفظائع وان يعلم ارقامها بالتحديد فعليه ان يقلب بعض هذه الكتب لتهوله فى كل صفحة من صفحاتها دماء الضحايا وارواح الشهداء .. ونحن هنا نسرد على القارىء لاقصة من تلك القصص التى تكاد ان تحترق كلماتها لتهوله ، بل حكاية من الحكايات التى لايثبتها المؤرخون فى كتبهم لان وقائعها وحوادثها تجرى فى الضمائر والنفوس

فالى ذكرى ١١ يوليو عام ١٨٨٢ نسوق هذه الفصول

المنظر الاول

جون بول : اعاهدك ايها الشيطان أن أستنير برأيك وأن أتبع نصائحك

الشيطان : (مكملا) فتضمن لنفسك الغلبة والمجد والسيادة والحياة

جون بول : أقسم لك بقداستك عندى أن أمتص دماء الشعوب وأن أستحل فى سبيل المظالم كل مطلب عادل جميل وان اعيش مثل الكابوس الجاثم على صدور الامم .. زودنى بنصائحك

الشيطان : بورك فيك ياحليفى الوفى .. ضع نصب عينيك أن قوتك اذا لم تفلح فى قتل أعدائك الاحرار ومحاربيك الذين ينشدون العدل والحق والحرية ، فعليك أن تلجا الى سلاح أمضى .. هذا السلاح كفيل بتقويض الامم وتخريب الشعوب .. انه من اختراعى وحدى

جـون بول : وما هو هـذا السلاح ؟ مانوعه ؟ أهو مدفع من طراز جديد ؟

الشـيطان : كلا .. كلا .. لقد صنعت المدفع من قبـل ، او قل اذا شئت انني أوحيت الى الانسان بصنعه ولكنني الان بعد ان اكتشفت ذلك السلاح الجديد أيقنت أن المدفع أهون خطرا منه

جون بول : وما الذى حـدا بك الى اختراع هذا السلاح ؟

الشيطان : انمـا أعمل لنصرة فكرتى واننى أواصل الليل بالنهار بحثا عن الوسائل التى تحقـق اهدافى .. أنا خادم الشر وصاحب رسالتـه وانك أحـد أجنـادى المخلصين ، أليس كذلك ؟

جون بول : لقد كنت أتنسم سبيلك منذ ترددت فى صدرى الحياة .. وأن استعدادى لخدمتك كبير عظيم .. لقد بدأت حياتى قرصانا القى الرعب والهول فى نفـوس النـاس .. كنت وأنا أجوب البحار فى ظلام الليل باحثا عن فريسة فى زورق أتمثل وجهك النارى وارادتك الشريرة وأحلم وأنا انقض على فرائسى من ركاب البحـر باننى حائز رضـاك .. وهانتذا تشق قاع البحر مرتفعا الى الشاطىء لتلقانى والقاك .. فيالها من سعادة تعلو على الوصف .. وياله من شرف عظيم لى أن تجعلنى احد جنودك الاوفياء .. انها منحة من رب الشرور يطوق بها عنقى فتثقـل كاهلى سجودا له ..

الشيطان : شكرا .. شكرا .. ان مقلتيك تلتمعان بلمعة قريبة الى التى اراها فى عيون الجن

جـون بول : انه السرور بما منحتنى اياه ، عجزت عن الافصاح عنه كلماتى فالتمع فى عينى .. لك الولاء .. لك الولاء

الشيطان : نعود الى السلاح الجديد .. ألا تريد أن تستمع الى وصيتى ؟

جون بول : أن شوقى الى ذلك عظيم .. كلى آذان مرهفة ..

الشيطان : ماهى خطتك أولا ؟

جون بول : خطتى تهدف الى سفك الدماء وسـلب الاموال

واذلال الحق وانتهاك العدالةواشاعة الظلم بين العالمين

الشيطان : وكيف تصل الىاهدافك هذه ؟

جون بول : سأحول بلادىكلها الى مصانع حربية تقيم الاساطيل وتصنع المدافعوتتفنن فى ابتكار آلاتالدمار .. سأجعل عمل بلادى صناعة الموت .. وبعد ذلك سأزحف بجحافلىعلى العالم كله وسأضع نصب عينىان احتل بلاد الشرقمهبط الدين وحاملة ألوية النبوة ومهدالرسالات السماوية

الشيطان : احسنت . . احسنت .. ان الشرق مرتع خصيب .. أراضيه مزروعة .. ومياهه دافقة .. وظلاله وارفة .. ما اشبهالشرقبالجنة ، التىاخرجت منها آدم من قبل . .

جون بول: وسوفأعيثلك فيهفسادا .. سوف اسخرجيوشى ومعداتى الحربية لاستنزافدماءبنيه وللسطوعلى قلاعهوحصونه ولابتزاز ثرواته واموا له .. لن أترك كاسيا الا وهو عار .. لن اترك شبعان الا وهوجائع..لن اترك موسرا الا وهو مفلس.. سوف امتص كلماعندهؤلاء ..ووسيلتى هى اذلال اعناقهم بالحرب ودك حصونهم بالمدافعواستعمال سلاحك الجديدالذى لم تخبرنى به بعد .. قل لىماهو حتى اضيفه الى قائمة ذخائر الموت ؟

الشيطان : انه سلاح هينخطير . . هين فى طبيعته ، وخطير فى نتائجه .. **الم** تسمعبالدسيسة ؟ . . الم تسمع بالوشاية ؟ . . هاتان الصفتاناللتان تعتبرهما البشرية اخس الصفات .. عليك بهما .. انهماكفيلتان بان تفتتا كل بناء مرصوص .. وحرام ان نخسرجنديا من جنود الشر قبل استعمال الدسائس وحوكالوشايات .. ينبغى عليك ان تحتفظ بقوة جيوشك وان قطرةواحدة من دم الشيطان . . او قطرة واحدة من دم اتباعهلتساوى ارواح ملايين البشر .. ضع ذلك نصب عينيك جيدا

جون بول : ولكن غزواتىالمنتظرة للعالم تستوجب ان

يموت من جنودى عدد كبير .. أن يموتوا فى سبيل نصرتى ونصرتك

الشيطان : عليك ان تلجأ قبل الزج بارواح هؤلاء ، الى الخديعة والدس والمكر . . ينبغى ان تفرق أبناء كل بلد تريد أن تحتله .. وأن تجعل من بعضهم لبعضهم خصوما وفرقا والوسيلة الى ذلك سهلة يسيرة فلن تخسر كثيرا اذا اطعمت بعضهم لحم البعض الآخر . . وهذا هو السلاح الذى أنصحك باتباعه ..

جون بول : اذن .. فسوف احشد قبل آلات الدمار ذلك السوس الجديد وسأجعله ينخر فى عظام الدول وسأقف عندئذ لاشاهد أبناء الوطن الواحد وهم يقتتلون ويتصارعون . . وسأحتفظ بكل قطرة من دماء جنودى واتباعى

الشيطان : (مقهقها) ها .. ها .. ها .. انهم جنود الشيطان

جون بول : سوف أسود بذلك العالم واخضعه لمشيئتك

الشيطان : أوشكت نار الفجر ان تحرق جوانب الافق .. وقد آن لى ان اعود . كما جئت الى قاع البحر .. ان النور اذا تنفس فما ينبغى لى أن اظهر ..

جون بول : نعم .. نعم فأنت رفيق الظلام ..

الشيطان : وداعا يا حليفى العزيز . . وسوف نلتقى فى المبادىء التى تعهدت بتنفيذها .. سوف نلتقى فى كل دم يراق .. وفى كل روح تزهق .. سوف نلتقى فى عدوانك المقبل المتصل الحلقات على حريات الشعوب . وفى انتهاكك لحرمة المطالب العادلة .

(وتصافح الشيطان وجون بول .. وكانت السماء فى تلك الآونة ملطخة بدماء الشمس التى تجاهد للسطوع .. وكانت مياه البحر ساكنة تتكسر عليها أنوار الفجر الدامية فتبدو كأنها كفن من الحرير صبيغ بالدم ..

وشق الشيطان سطح الماء واختفى لائذا بالقيعان ولكن صورته لم تختف من نفس جون بول وظلت ترف بين جوانحه تقطر

بالنار وتفح بالشر فاتقد فى عينيه بريق عجيب ورفع يديه الى السماء ثم صاح مقهقها : ((أنا نصـــير الشيطان ..)) وكأن هذه الصيحة تجاوب صداها فى أركان السماء فظل الافق يقطر بدم الشمس ايذانا بسيادة أمة غاشمة وشعب باغ ودولة مستبدة آثمة .. وقرع النـاقوس . . ناقوس الكنيسة المجاورة يستدعى اليه المؤمنين الاخيار ، فى حين غرق جون بول فى أفكاره السوداء الحالكة يقنص منهـا الخطة للجريمة ، وينسج من خيوطهـا المشؤومة أهبته للعدوان .. ودار النهار واقبل الليل واذا جون بول قد أعد دستوره واستكمل أدواته وشرع فى العمل بوصية الشيطان وهكذا ظهرت انجلترا الى الوجود . هكذا نشرت جناحيهـا وحلقت ماشاء لها التحليق)

المنظر الثـانى

جون بول : (جالس على صخرة وسـط البحر تلتطم حواليـه الامواج معولة كانها ارواح سجينة تئن وهو ملتحف بدثاره الاسود الغربيب)

ياروح الشيطان .. لقد كنت وفيا مخلصا لك . ونفذت تعاليمك الحازمة ، فاستوليت على الهند . ملايين الملايين من ابناء الهنـد الاخيار ، اذا أشرت أطاعوا ، واذا تكلمت انصتوا . الهند . اصبحت لى محاصيلها الكثيرة الغزيرة . وثرواتها الكبيرة العظيمـة . . ولقد عطلت التعليم ، وقسمت الهنود الى فرق ، والبت النفوس على بعضها ، واستتبت لى من وراء ذلك السيادة والعظمة . . ولكننى اخاف .. ! يسـاورنى خوف مبهم ، لست اعلم مصدره ، ولا ادرك كنهه .. انا خائف .. خائف .. اننى أستلهمك النصح ياروح الشيطان .. لقد حاربت العدل كما اردت ، وسفكت الدماء حسب مشـيئتك ، وقاومت النور ان يندفق فى النفوس .. كنت حليفك الامين فاهتكى الستر عن مخاوفى .. وارشدينى الى طريقك القويم .. ان الحسرة تأكل قلبى حين اتمثل انك تخليت عنى ياروح الشيطان .

صوت الشيطان : كيف اتخلى عن أبنائى الاوفياء ؟

جون بول : مرحى .. مرحى .. أفى حلم انا ؟

الشيطان : كلا .. اننى أطوى العالم كله كى اصل الى من يناجينى او ينادينى .. لبيك .. لبيك

جون بول : اهتك اذن حيرتى، واقتل فى نفسى ذلك الخوف الرهيب المجهول

الشيطان : الطمع اذا استفحل تحول الى صحة

جون بول : اذن ادركنى من هذه الصحة .. أغثنى من ذلك الخوف .. لست ادرى مم اخاف

الشيطان : انك تخاف أن تفلت من يدك الهند . لان طريقك اليها وعرشائك . فعليك أن تمهد اليها كل سبيل بينك وبينها .. هذه الكنوز العظيمة .. هذا المرتع الخصيب

جون بول : اذن . . ماذا اصنع ؟

الشيطان : عليك بمصر ... مصر جنة الله فى ارضه .. مصر مفتاح الشرق ... مصر مهد الحضارات .. ينبغى ان توقف فيها عجلة التقدم ، وان تشل كل رغبة الى الرقى .

جون بول : (بصوت ترن فيه نبرة الطمع) مصر !! نعم .. نعم .. يجب ان اضع يدى على مصر . لقد امتص خيراتها الاتراك ، وهى ما تزال غنية خصيبة تجود اراضيها بشتى الزروع .. واذا كانت الهند كنزا فمصر هى الاخرى كنز جديد، صدقت، صدقت ايها الشيطان ، اننى كنت اخاف ان تضيع الهند من يدى ، وها انت ذا رسمت لى السبيل الى الاحتفاظ بها .

الشيطان : (وهو يربت على كتف جون بول) الى مصر .. الى مصر .. فى نصرة الشيطان !

(وفى عام ١٨٠٧ شنت القوات البريطانية حملاتها على مصر)

ولكن المصريين ردتها على أعقابها ،وارغموا « فريزر » على توقيـع عقد بالجلاء . ولجأت انجلـترا الى تأليب السلطان التركى على محمد على باشا لعزله . وكان جون بول يتبع فى ذلك سياسة الشيطان التى اوصاه بها ، وهى ان يشـهر فى الخفاء سـلاح الدسيسة، واثارت انجلترا ايضا أهل الشام بعد ذلك على محمد على الكبير عاملة على هدمه .وهناضاق جون بول بهـذه المتاعب ووجد أن الروح المعنوية للشعب المصرى عالية رفيعة . فاستنجد بحليفه وهاهو ذا الشيطان يشق الحائط ويلبى نداء جون بول)

جون بول : أين أنت .. أين أنت يا حليفى العظيم .. أهكذا تتركنى !؟

الشيطان : هأنذا بين يديك

جون بول : لقد اوشكت على السأم والملالة .. حاولت أن أدك قـلاع المصريين بالمـدافع وان اخضـعهم بالحـديد والنار فلم ينفع لا الحديد ولا النار فى ازهاق ارواحهم القوية العاتية .. وقد هزموا قواتى عام ١٨٠٧ وارغموا احد اتباعى على توقيـع عقـد بالجلاء وكنت من قبل قد تآمرت على محمد على الكبير حين وجدته يعمل جاهدا لاصلاح حال الشعب واتبعت ما نصـحتنى به مـن الدسيسة والخـداع ولكن ذلك السلاح أيضا لم ينفع ... ولم افلح الا فى التعـاون مع تركيـا لـرد الفرنسـيين عـن مصر وكـان ذلك فى عـام ١٧٩٨ .. وهأنذا حائر بائر فرغت جعبتى من الحيـلة والقـوة .. واننى ليخامرنى العجب كيف ان هؤلاء المصريين يستطيعون أن يهزمونى وهم عزل من السلاح

الشيطان : المصريـون أجـلد الشعوب على المقاومة .

جول بول : وماسر ذلك ؟ !

الشيطان : لانهم شعب عريق قديم ، وان روح الكفاح تشتعل بانفسهم حتى تجعلها نارا .

جول بول : اذن ما العمل ؟ !

الشـيطان : لقـد كنت انتبع خطواتك .. خطوة ، خطوة ..

ولقد قدرت متاعبك فى اخضاع هؤلاء العمالقة .. لذلك تعاونت مع الظروف على جعل الحالة المالية والاقتصادية فى مصر مضطربة .. فعليك ان تعرقل حاجتهم المالية بقدر ماتستطيع وان تدخل انفك فى كل شأن من هذه الشئون وان تفتح من ذلك ثغرة لك فمنفذا تدخل منه الى مصر .. هذا هو دورك .. فالى العمل .. الى الجهاد .. ولا تنس الدسائس .. اختر من اتباعك من يجيد صوغها وأدفعه الى ساحة العمل

جون بول : اذن سوف اسعى عند الباب العالى واضم الى جانبى الدول الاوربية كى يخلع السلطان الخديوى اسماعيل .. وسأرى بعد ذلك ما يكون ..

المنظر الثالث

(الليل ساج ممتد على شواطىء الاسكندريه . يرى على بعد ، الاسطول البريطانى فى مياه الثغر)

الشيطان : ماذا فعلت ؟

جون بول : فعلت كل ما يرضيك ..

الشيطان : اخبرنى . . . اخبرنى . . .

جون بول : لقد نضجت الثمرة وحان وقت قطفها ، تخلى اسماعيل باشا عن العرش لولى عهده توفيق باشا . ورأيت توفيق باشا يعمل على اعلاء قدر الوطنيين ، ويختارهم للاعمال الحكومية الكبرى

الشيطان : اعلم ذلك . ولقد امر توفيق باشا بترقية الكثيرين من الوطنيين الى رتب عليا فى الجيش ، وكانت تلك الرتب موقوفة على الضباط الجراكسة والاتراك .. فأوحيت الى ناظر الجهادية « عثمان رفقى باشا » بعد ان طلب الضباط الوطنيون عزله من منصبه ان يعاقبهم عقابا مريرا .

جون بول : نعم . . نعم . . فقد استدعاهم « عثمان رفقى باشا » الى قصر النيل ، وعلى راسهم « عرابى » وامر بالقبض عليهم فكانت لذلك ثورة العرابيين الاولى

الشيطان : وفى ٨ سبتمبر اصدر « داود باشا » امرا الى القوات التى يقودها « عرابى » والقوات السودانية التى يقودها « عبد العال بك » بالرحيل عن القاهرة الى الاسكندرية ودمياط فلم يطع عرابى الامر وكذلك لم يطع صاحبه . وقام زعماء الحركة بمظاهرة عسكرية فى يوم ٩ سبتمبر . فساروا الى ساحة عابدين وطالبوا باسم الامة بعزل رياض باشا واعطاء الامة الدستور وزيادة عدد الجيش الى ١٨٠٠٠ عسكرى .

جون بول : وكيف علمت كل هذا ؟

الشيطان : واعلم أكثر من هذا ...

جون بول : اذن تعلم اننى حرضت على مؤامرة لاغتيال عرابى ؟

الشيطان : نعم .. ولكنها لم تفلح .. !

جون بول : وتعلم اننى اتفقت مع فرنسا على القيام بمظاهرة بحرية بالرغم من معارضة الباب العالى ؟

الشيطان : (مكملا) وتحرك الاسطولان الفرنسى والبريطانى امام الاسكندرية فى ٢٠ مايو ..

جون بول : وقد قدم ممثلا بريطانيا وفرنسا مذكرة الى رئيس النظار فى صيغة بلاغ نهائى يطلبان فيها استقالة النظارة وابعاد عرابى عن القطر المصرى ، ونفى صاحبيه « عبد العال » و « على فهمى » الى داخل القطر .

الشيطان : ولكن « الخديو توفيق » لم يسلم بمطالبهما واعاد عرابى الى النظارة وها أنت ذا يا حليفى ترى الامة المصرية يكاد الفرح يطير بأنفس ابنائها لعودة عرابى ، ها أنت ذا ترى مصر يدا واحدة وقلبا واحدا وصوتا واحدا ... فما الذى صنعت ؟ وهل يرضيك هذا الحال .. القوم لاهون مبتهجون . فعليك ان تقتل افراحهم وان تحيلها الى احزان

جون بول : وكيف السبيل ؟ اننى قد اعددت عدتى ولكن عليك ان ترسم لى الطريق

الشيطان : اطمئن ... ولاتجزع .. ساعقد لك مفاجأة سارة عظيمة .. وستدخل مصر مرفوع الجبهة . شامخ الانف .. وعليك حينئذ أن تجعل أفراحها اتراحا وان تضع العوائق دون كل تقدم لها

جون بول : فقط اريد ان اضع قدمى .. وغدا سترى

المنظر الرابع

(رجل اجنبى (مالطى) يسير فى احد شوارع الاسكندرية فيرى احد المكاريين ويدور بينهما الحوار التالى) :

المالطى : اريد ان استأجر منك ذلك الحمار لمدة ساعة

المكارى : تفضل

المالطى : كم تريد ؟

المكارى : عشرة قروش

الشيطان : (لا يبدو ولكن صوته يفح فى اذن الرجل المالطى) .. وهذا الرجل المصرى يتغفلك . عشرة قروش ؟ ! هذا مبلغ كبير فكيف يجوز هذا ؟

المالطى : هذا كثير . اننى أدفع خمسة قروش فقط

المكارى : انك تريد ان تستغلنى ايها الرجل الاجنبى

صوت الشيطان : (يهمس فى أذن المالطى) ما هذا ؟ اصفعه على وجهه .. الطمه على راسه .. هذا الحيوان القذر .. !

(يشتبك الرجلان فى معركة بالايدى يبطش فيهما المصرى بالمالطى وتتجمع جمهرة كثيرة من الناس حولهما ... وهنا يختفى الشيطان)

المنظر الخامس

الشيطان : هل سمعت بحادثة الرجل المالطى الذى اعتدى عليه احد المكاريين

جون بول : كلا

الشيطان : لقد ضرب المصرى الرجل وشج راسه وشوه وجهه .. وها هو ذا اسطولك يذرع مياه الاسكندرية حائرا لايدرى ماذا يصنع . اضرب الاسكندرية ولك العذر فى ذلك

جون بول : وماذا اقول للدول الاوروبية

الشيطان : قل لها اننى دخلت مصر للمحافظة على حقوق الاجانب . لقد مرت على هذه الحادثة مدة وها انت ذا ترى المصريين وهم يقيمون القلاع والحصون على شاطىء الثغر كى يقوى جيشهم وحصونهم ويشتد ساعدهم .. فالى متى السكوت والانتظار ؟ ينبغى ان تدك هذه القلاع قبل ان ترتفع

جون بول : فكرة رائعة . سأتخذ من حماية الاجانب وسيلة الى دخول البلاد وسأذل اعناق رجالها وسأمتص دماء بنيها .. وحينئذ تصبح مصر فى فمى لقمة سائغة طالما تشهيتها . ولك الفضل وحدك ايها الشيطان . **(صائحا فى القواد المنتشرين على سطح الاسطول)** ايها القواد .. ايها العساكر .. فى هذا اليوم . ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ اصدر اوامرى لكم بان تضربوا الاسكندرية حتى تدكوا حصونها وحتى تحيلوها رمادا بأكملها . **اليوم** نطأ الاراضى المصرية . . . اليوم نملك مفتاح الشرق . **اليوم** يرفرف العلم البريطانى على الحصون المصرية مزهوا خفاقا .. وبعدئذ سنشل فى مصر كل تقدم . سنحرم الشعب من التعليم .. وسنقف عجلة الزمان فى تلك الامة الشامخة . . وسنعطل كل عمل يعود بالخير على ابنائها . ستلعب الدسائس وتنطلق الوشايات وهذه وسيلتى . وسيلة الشيطان . اضربوا الاسكندرية . اهدموا قلاعها .

الجنود : (يتصايحون) الى المدافع .. الى المدافع . !

وتفجرت براكين النيران على الاسكندرية وتقهقر الجيش

المصرى الاعزل الى ((كفر الدوار)) وكان ذلك اليــوم المشــئوم بدء احتلال الانجليز لمصر . . فليتذكر ذلك المصريون . . وليستعيدوا صــور الفظــائع التى ارتــكبها البريطان فى بلادهم . . وليكن من ذلك اليوم حافز يتقد بالنار فى الانفس وتلتاع من سورته الارواح . لقد غصبوا بلادنا عنوة . واستحلوا فى سبيل ذلك كل محــرم . . فلنلعن ذلك اليوم وتلك الساعة كلما دار نهار وكلما اقبل ليل . ولنجتمــع كلمــة واحــدة ويدا واحدة لنمزق وجوه الغاصبين

أحمد رفعت البطل المصرى

مصر التى رفعت من الهباء مدنية الوجود ، وتغلبت بعلومها حتى على الموت ، وأقامت على جناتها العذراء محاريب الفكر والفن ، وفتحت مغاليق الارض بحد السلاح .. مصر التى طرحت عن الانسان الاول ثوب الجهالة واخذت بيده الى أبواب الحضارة . . مصر الخالدة تطالب بالوفاء أبناءها المخلصين . وان لها فى اعناقهم دينا باهظا لو يعلمون !! فمن ترابها ومائها يورق الزرع . ومن ثمارها اليانعة تشب الابدان . ومن نسيمها تتردد الحياة فى الصدور . ان فى كل خلية من جسدى منحة للوطن . فلولا ترابه وماؤه ونسيمه ، ما نبض قلبى ولا نما عودى ! وان كل مصرى هو جزء حى من الوطن العظيم ، يحمل عنه رسالته الى المجد ، ويذود بنفسه عن كل شبر من أرضه الغالية . وان المصريين هم أبناء وادى النيل جميعا ، لا فرق بين سكان الشمال واهل الجنوب . عشيرة متماسكة يؤلف بين عناصرها التاريخ والدين واللغة . هم جسد واحد ينبض فيه شريان واحد هو النيل فهل يمكن لهذا الجسد ان يختلج بالحياة اذا تمزق الشريان ؟! هيهات .. هيهات . ان الصور الذهبية من ماضينا الرائع تشرق أمام العيون باهرة

وضاءة ، وتستحث ابناء الوادى المقدس الى الترابط لبلوغ هدف واحد والسعى الى مستقبل واحد ! وان ذلك الشعور يوحيه الوادى والنيل يخفق فى صدره الى ابنائه الاوفياء . واننى فى هذه الصفحة أدير عجلة الزمن الى الوراء وأقف بها عند عام ١٩٢٤ لانقل الى القارىء من سفر التاريخ لوحة ناصعة يحق لنا أن نستجلى معانيها فى ذلك الوقت العصيب !

فى مصر

اذا ذكرنا عام ١٩٢٤ انتشرت فى الاذهان صور الاضطراب البالغ الذى كان يسود مصر فى تلك الحقبة ، واستطعنا ان نتمثل الشعور الوطنى الذى كان يشتعل فى النفوس . ولقد كان على رأس الحكومة فى ذلك الحين المغفور له سعد زغلول باشا . وكان حماس المصريين جميعا يدفعهم الى الموت او التحرر من ربقة الاستعباد . وكانت هذه اليقظة من جانب الشعب بشائر سعيدة نحو تقدمهم الى المطالبة بالحرية ... الحرية منحة الله للناس فكيف يسلبها بعضهم من البعض الآخر ؟ ! لقد التفت المصريون الى حقهم الطبيعى فى الحياة فاحتدم الجنون الوطنى بالرءوس وقرر الشعب ان يغسل عار القيد بالدماء ، واعتزم اما الحياة الكريمة أو الموت فى سبيل الجهاد . وكانت تلك الموجة من الحماس تجتاح الوادى من الجنوب الى الشمال ، وكأنها مع النيل من منبعه الى مصبه تتدفق عاتية عارمة ! الصغار والكبار ، الشيوخ والشباب ، النساء والاطفال ، كانوا جميعا صوتا واحدا مدويا ينادى بالاستقلال . وارجف الانجليز من ذلك الوعى ثم راحوا يتدبرون الامر على طريقتهم من التفكير البطىء . ولكن ، حدث فى تلك الآونة ان قتل السردار ، وكان ذلك نذيرا للفظائع التى ارتكبوها فى مصر ، والتى ما تزال مواقعها

شاهدة تسرد على الاجيال قصة الاستعباد دامية الصفحات ! دق الناقوس .. فالى الموت جماعات جماعات .. الى الموت احرارا أطهارا لاذنب ولا جريرة غير المطالبة بالحياة . وما الحياة بغير الحرية ؟ انها اظلم من القبر ، واشد مرارة من الهلاك . لقد اراد منطق الاستعمار الا يتنفس الناس . ولم تقف الطامة الكبرى عند ذلك الحد ، بل أخذت انذارات الانجليز تتوالى على الحكومة المصرية مطالبة اياها بتنفيذ الف بند وبند مما تفرضه لغة الغاصب على المغصوب . وكان فى احد تلك الانذارات مادة تنص على وجوب اخلاء الجيش المصرى للسودان

فكيف تتخلى القوات المصرية عن الاراضى المصرية . وما السودان !؟ انه شطر من جسم الوادى المتحد طبيعة وناسا ولغة ودينا . وأرسل اللورد اللنبى المندوب السامى امرا بتنفيذ تلك المادة المشئومة الى هدلستون باشا نائب سردار الجيش فى السودان

بطل الخرطوم

جرت كل هذه الاوامر فى الخفاء ، ولم يكن أحد فى السودان يعلم ما أراده هدلستون باشا من طرد الجيش المصرى من وطنه الجنوبى . وفى ليلة ١٩٢٤/١١/٢٢ ظهرت جريدة الحضارة تحمل النبا المكتوم المشئوم الى الناس . فانقلبت الخرطوم رأسا على عقب وترددت الشائعات عن سر ذلك التصرف الشاذ ، وامتلأت القلوب بالحماس ، وكان نصيب الاشقاء السودانيين منه وافرا جليا — أما الكتائب المصرية وعلى رأسها القائمقام أحمد رفعت بك فقد غلت نفوس جنودها بالنار ، خاصة حين استولى ثيربورن بك الانجليزى على مفاتيح المخازن التى توجد بها الذخائر الحربية . وأخذ ولشن بك الانجليزى أيضا يصدر أوامره الى الضباط

المصريين بالسفر الى القاهرة . وفى تلك اللحظة الرهيبة التى يهون الموت أمامها كان بعض الضباط الانجليز يسيرون الى مخازن الحربية كى يقيموا عليها حراسة بريطانية. وهنا اعترضهم أحمد رفعت قائد المدفعية المصرى وأمرهم بالعودة من حيث أتوا . وأخبرهم ان ذلك أحفظ لحياتهم ، لانهم اذا ساروا خطوة واحدة الى الامام ، فسوف يقتحمون بها الهلاك المحقق. قال لهم هذه الكلمه ، ومن خلفه الجنود المصريون تابى أن تسلم سلاحها وذخيرتها وترفض أن تتخلى عن وطنها للغاصبين . كتلة واحدة وارادة واحدة جمعها احمد رفعت فى قبضته القويه يلوح بها فى وجه البريطانيين وهنا أرسل هدلستون باشا بوصفه نائب سردار الجيش الامر الاتى الى احمد رفعت بك البطل المصرى

الى القائمقام احمد رفعت بك:

كان من نتيجة قتل المرحوم صاحب المعالى السردار والحاكم العام فى القاهرة أن قدم صاحب الفخامة المندوب السامى الى الحكومة المصرية عدة مطالب منها اخراج القوات المصرية والضباط المصريين من السودان فى الحال. وبما ان الحكومة المصرية لم توافق على مطلب صاحب الفخامة المندوب السامى فى مدة ال ٢٤ ساعة المحددة فى مذكرته ، فقد أمر فخامته صاحب السعادة نائب الحاكم العام باخراج القوات المصرية والضباط المصريين من السودان . وقد عهد الى بصفتى نائب السردار بتنفيذ هذه الاوامر ووجب على اذن اتخاذ جميع الاحتياطات العسكرية ووضع جميع القشلاقات فى معزل .

وعلى الجنود المصرية أن تركب القطار بالسلاح والبيارق ولكن بدون ذخيرة

هدلستون
نائب السردار



آذن ، فقد صدقت الشائعات واتضحت نية الانجليز سافرة ، فماذا يفعل احمد رفعت ؟ هل يطيع ما أمر به هدلستون ؟ ان ذلك أبعد خاطر أمكن أن يومض فى ذهنه ، ولكنه أمر فى الحال بتشكيل مجلس حربى مصرى استصدر القرار الاتى :

نص القرار

انه لمناسبة البلاغ الذى طلب فيه مندوب جلالة ملك بريطانيا من حكومتنا المصرية اخلاء السودان من الجنود المصرية ، وبما ان حكومتنا الموقرة رفضت هذا الطلب ، وترتب على رفضها، أن أصدر الجنرال اللنبى امره الى اللواء هدلستون باشا بطردنا من هنا ، ولما كان هذا الجيش هو جيش صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول ، ملك مصر والسودان، ولما كان السودان قطعة من وادى النيل ، وأقسمنا اليمين لجلالة مليكنا أن ندافع عنه ،وأن لانتخلى عن شبر أرض منه ، قررنا نحن رئيس وأعضاء المجلس الحربى المذكور أن نثبت الى النهاية حتى نسلم أرواحنا فى أماكننا أو يدعونا مليكنا

وطبقا للانظمة العسكرية قررنا أن نوحد قيادة القوات المجتمعة بالخرطوم بحرى ونعهد بقيادتها الى حضرة صاحب العزة القائمقام احمد رفعت بك قائد المدفعية المصرية بالخرطوم حيث أن اللواء محمد أمين باشا اقدم ضابط مصرى فى السودان تخلى عنا فى هذا الوقت العصيب

وهذا القرار منا بذلك

قائمقام
احمد رفعت

استصدروا هذا القرار ، ولم يزعجهم أن القوات البريطانية قامت فجأة بحصار القوات المصرية ، أما مخازن الذخيرة فقد عرفت الجنود المصرية كيف تتسرب الى منافذها الخفية

وتخرج مافيها من عدة ، ولقدساهم معالمصريين فى تلك الحركة اخوانهم السودانيون وقدأحسواأن خروج الجيش المصرى من وطنهم هو اقتطاع جزء حىيقطر بالدم من جسم ذلك الوطن ، وأوشك البركان أن ينفجر وأوشكت النار أن تندلع ، وحمل احمد رفعت القرار المتقدم للمجلس الحربى المصرى واخترق بمفرده الحصار البريطانى متجهاالى ديوان الحربيه الواقع قبلى الخرطوم ، واقتحم مكتب هدلستون باشا وهو مدجج لا بالسلاح ، ولكن بقوة الايمان ومضاء العزيمة ، وكانت فى تلك اللحظة فوهات المدافع المصرية موجهة الى سراى الحاكم العام ، ومقابلة للحصار الانجليزى وجهالوجه ! دخل احمد رفعت على هدلستون ، وهو يعلم كل العلمان السودان بأجمعه يؤيده فيما يقول ، واسلمه قرار المجلس ثم قال له وكأن اصوات الملايين من المصريين والسودانيين تجتمع فى نبراته وتدوى فى كلماته رهيبة قوية :

ان امركم هذا يخالف التقاليد المرعية ، واننى اكرر لك انه لايمكننى تنفيذ امر الانسحاب من السودان ، وما دامت القوات الانجليزية امامنا كما ترى فاننى لا اضمن عدم الاشتباك

ان الضباط والجنود تحت قيادتى لن يسافروا الى مصر الا بالشروط التى سأسردها عليك ،واننى رجل لا أخشى الموت وفى استطاعتى ان اقلب الخرطوم رأسا على عقب فى ساعة واحدة اذا لم تنفذوا مطالب جيشى ، اما الشروط ، فهاهى ذى :

١ – لانبرح الاراضى السودانية الا بعد وصول مندوب مصر من قبل جلالة مليكنا

٢ – اذا جاءتنا الاوامر المصرية بالسفر ، فيجب ان نرحل بجميع اسلحتنا ومهماتنا ، موفورى الشرف العسكرى

٣ ـ يكون السفر فى تلك الحال عن طريق حلفا وليس من طريق بور سودان

وحينذاك ، لم يجد هدلستون باشا بدا من التراجع فامر بابعاد القوات البريطانية فى الحال . واتفق على ارسال برقية الى المسئولين فى مصر .

عاد بعد ذلك أحمد رفعت الى حيث يشهر جنوده الاباة أسلحتهم ، وينتظرون أمره ليبذلوا أرواحهم . وقد لجا هدلستون باشا الى هذا التقهقر لانه كان على يقين من تصميم الشعب السودانى الباسل على الانضمام الى صفوف المصريين لطرد الانجليز من الخرطوم . أجل ، لقد كان هدلستون باشا يعلم تمام العلم أن السودانيين من شغفهم ببطولة رفعت بك ، واعجابهم الشديد برجولته ، ومن فرط حبهم البالغ لاخوانهم المصريين وتمثلهم ذلك الحب فى شخص قائد المدفعية الباسل ، كانوا يسمون كل مولود ذكر فى تلك الآونة باسم رفعت . ومن هنا استطاع هدلستون بدهائه أن يتدارك الامر قبل انفجار البركان فأمر بفك الحصار البريطانى

وارسلت بعد ذلك برقية الى الجهات المصرية !! وقبل وصول الرد المصرى كان أحمد رفعت يتاهب لخوض الموت على أسنة الرماح . ولكن الكتاب المصرى التالى ورد اليه من وزير الحربية فى ذلك الحين :

حضرات الضباط وضباط الصف والجنود بالجيش المصرى فى السودان

عهدنا فيكم الشجاعة والولاء ولا يداخلنا أى شك فى أنكم مستعدون جميعا لاراقة آخر نقطة من دمائكم فى خدمة جلالة الملك وفى سبيل الوطن

على اننا نأمركم بأن تكفوا عن مقاومة الاجراءات التى اتخذها

نائب حاكم السودان العام لاخراجكم بالقوة من الاراضى السودانية ، فانه ليس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى

وبما أن الحكومة المصرية قد احتجت صريحا على هذا العمل الذى نفذ بالقوة القاهرة ، فعودتكم لا يترتب عليها أى مساس بحقوق الوطن ولا بشرفكم العسكرى

يا حضرات الضباط . ان الحكومة المصرية لن تنسى لكم قيامكم بواجبكم فى خدمة جلالة الملك وفى سبيل البلاد ، ذلك الواجب الذى أديتموه بالصدق والاخلاص . وترى الحكومة حقا عليها أن تظهر عطفها عليكم ، وأن تبلغكم أنها مهتمة بامركم لتكونوا آمنين على حاضركم ، مطمئنين على مستقبلكم

وزير الحربية والبحرية
محمد صادق يحيى

وقع هذا الامر وقوع الصاعقة على النفوس . فكيف يخلى الجنود ارض السودان ؟ وأين يذهبون بذلك الحماس الذى يأكل نفوسهم ويلهب ارواحهم الماجدة ؟ وماذا يقولون لاخوانهم السودانيين الذين ترابطوا معهم ترابط الارواح والعزائم والاهداف ؟ لقد أطاع الضباط والجنود المصريون الاوامر التى تلقوها . أطاعوها كما يلبى الانسان أمرا بتجرع السم الزعاف .

وكانت القاهرة نهبا للازمات السياسية فى ذلك الحين . وكان فى استطاعة رفعت بك أن يقلب السودان كما قال رأسا على عقب ، لان سواعد السودانيين الابطال كانت تناصره ، وألسنتهم تلهج بحبه واكباره . وكان بوسعه كذلك ان يصبح حاكما عاما بارادة السودانيين لو شاء اولو الامر

العـودة

كانت تلك الحركة يقظة رائعة مشرقة رجع بعـــدها الجيش المصرى الى القاهرة ولم يترك من معداته وذخائره شيئا كما أراد هدلستون باشا وكان سفره عن طريق حلفا كما نص قرار المجلس الحربى المصرى .

عاد الجنود البواســـل وكأنهم يحملون نعوشهم ويســـيرون فى مآتمهم ، لانهم لم يفرجوا عما فى صدورهم من ظمأ المجد ، وكأن على جبين كل منهم اكليل العزة وفى نفسه التعطش الى الموت ، وقد تركوا بعودتهم فراغا كبيرا فى قلوب الســـودانيين ، وكان توديعهم يقطر بالدموع والحسرات من اخوانهم ابناء السودان ، فقد خرج فيه الشيوخ والصغار الى الشوارع كل منهم كأنه يودع املا عزيزا حكم عليه ان يفقده عنوة وقسرا ، وكان العـــلم المصرى يخفق فى السماء والضباط مرفوعو الجبـــاه شامخو النفوس ، ومن حولهم تتعالى الهتافات من الشعب السودانى تـــكاد تشق اجواز الفضاء ، ولم يملك الانجليز امام تلك الاحتفالات الشعبية الا ان يدفنوا وجوههم فى ستائر الثكنات ويواروا فيهـــا احقـــادهم على هذا الترابط الخالد مدى الحياة . ومنذ تلك الآونة ، فطن هدلستون باشا وانصاره فى الســـودان الى حقيقة الشعور الشعبى تجـــاه المصريين ، واخذوا فى الخفـــاء يدسون معـــاول الفت فى تلك الوحدة المترابطة بأساليبهم اللينة المسمومة ، ولـــكن فى اعمـــاق النفوس ايمانا راسخا بأن مصر والسودان جسم واحد ينبض فيه قلب واحد !

الى اسوان

وصلت القـــوات المصرية الى اسوان فى طريقها الى القاهرة ، ولكن رفعت بك فوجىء بامـــر السلطات المصرية الذى يقضى ببقاء الضباط والجنود فى اسوان الى حين صدور اوامر اخرى ، وقد علم احمد رفعت ان السبب فى ذلك الامر هو ماكان قد اعتزم ان

يفعله فى القاهرة ، فقد انتهى الى وزارة الحربية ان احمد رفعت قرر ان يلتحم مع البريطانيين حتى لو كان ذلك فى شوارع العاصمة، ولذلك رات وزارة الحربية المصرية ان تبعث اليه بذلك الامر ،وقد ظلت القوات المصرية مقيمـة فى اسوان ثلاثة شهور كاملة حتى سمح لها بعد ذلك بالرحيل الى القاهرة

فى القاهـرة

وحمل القطار احمـد رفعت على راس ضباطه وجنـوده البواسل من اسوان قاصدا بهم الى العاصمة ، وكان كل منهـم يتصور الاستقبال الحماسى الذى يمكن ان يقابل به ، وسار القطار بهم من محطة الى اخرى وكلما اقترب من القاهرة دنا الامل فى الاستقبال الرائع لمن اراد الانجليز ان يشتروا حريتهم فقرروا هم ان يبيعوا ارواحهم دون مايبتغون!

ووصلوا الى العاصمة فكان فى استقبالهم ٠٠ ارصفة المحطـة وجدرانها الجامدة الصـماء ، يعلوها الغبار ، وتتهاوى عليهـا برودة الموت، ولون العدم٠٠ ولم يأسـف احمـد رفعت لذلك الاسـتقبال المجيد ! لانه عبـر بحركته الباسلة فى السودان عن الروح المصرى وحـده ، وفعـل ما تمليه عليـه كرامة الوطن العظيم ، وكان احمد رفعت يعلم انه من الوطن واليه ولم ينتظـر غير ان يدفع ما فى عنقه للارض التى انبتت عوده ، وللبلد الذى رباه جسما وعقلا ونفسا ، وقد اريد لذلك البطل ان ينقـل الى القرعة كى يبعدوه عن السلاح

المطـالبة باعتقاله

وعلى اثر وصول احمد رفعت الى القاهرة ، اخـذت الصحف البريطانية تطالب باعتقاله لتمرده وعصيانه لاوامر رئيسه هدلستون باشا . واسرفت صحف انجلترا فى ترديد ذلك القول وخاصة بعد ان راح السـودانيون يشاغبون السلطات الانجليزية هناك

وهذه فقـرة من مقال نشرته النيرايست بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥

قال مراسل النيرايست فى الخرطوم : ان رفعت باشا قائد المدفعية المصرية واشياعا له ، هم الذين اوعزوا للسودانيين بالثورة ثم تركوهم للقضاء والقدر . ولو كان هؤلاء المحرضون المصريون قتلوا بالرصاص فى نفس الوقت الذى قتل فيه السودانيون ، لارتفع مركز البريطانيين الى مستوى عال على حساب المصريين واهانتهم

وجاء فى جريدة الديلى ميل بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٢٤ كلمة اشار فيها المحرر الى **وجوب تسليم رفعت بك وذكرت قراءها بان الحكومة البريطانية لم تعثر على قتلة السر لى ستاك بعد وقالت ان الناس فى بريطانيا اخذوا يشعرون بان مصر راحت تعبث بولاة الامور البريطانيين**

وبالغت بعد ذلك الصحف فطالبت احداها برأس الرجل دون اعتقاله ومحاكمته !

وبعد ؟

فلعل القارىء يسأل عن بقية قصة ذلك البطل ، واننى لا اذكر منها غير انه مات كمدا ، بل استشهد كريما ، فلم يسر فى جنازته واحد من الاعلام العظماء ! واننى احيل القارىء بعد ذلك على المتحف الحربى ليشعر بالخيبة والاسى اللذين خامرانى حين لم اجد فى ذلك المتحف تمثالا لذلك البطل العظيم

الشيال .. الخباز .. الكاتب العبقري

الليل ..! كأنه جلاد اسود ينكل بساهريه !!

والنجـوم المبعثرة على ثوبه الفضفاض .. كأنها عيون الجن تقدح بالشرر وترشـده الى كل يقظان !!

والريح .. تحشرج تارة فيرتطم انينها الاصـفر بأكوام المقـابر والاجداث ، وتصفر تارة اخرى ثم تلطم وجه مكسـيم كأنهـا وحش خفى لايستطيع ان يمسكه ولا ان يراه ـ او كأنهـا ارواح شريرة تتصاعد اليـه من تحت القبر الرابض امامه ، او تتساقط على وحدته الموحشة من سجف الظلام ! !

من ياترى ايها الشاب المرتعد قذف بك الى مدينة الموتى وقد غطت اديمها اكفان الجليد ؟!

من ياترى رماك الى القبور فى قبضـة هذه الليـلة المتوحشة المجنونة وهى تعوى كأنها عجوز تلطم خديها باكية مافات من ايامها البيضاء ، وكأنك فى قبضتها هشيم يتكسر او غصن يتلوى ؟!

لم يكن الذى دفع مكسـيم جوركى الى مكابدة اهوال الظلام بين المقابر سوى رغيف واحـد يطمع فى الظفر به عنـد احتراق جنبات السماء بنيران الصباح .. وكانت هذه هى الليلة الاولى التى يرغمه فيهـا العوز الى احتراف الصلاة على الموتى حتى يستطيع ان يجد الخبز الجاف يمسك به اوده من الهلاك . ولم يكن يقبل ان يتناول اجرا على قيامه طول الليل بالصلاة غـير بعض الخبز ثم يرفض كل مايقـدم اليه من النقود . وكان هـذا التصرف الشاذ من جانبه يثير فى نفوس الناس الدهشة والتقدير . وان

المسئولية فى انتهاء مكسيم الى تلك الحال تقع على عاتق الجوع والبطالة اللذين كانا يهددان الناس فى ارواحهم ، وتقع بالتالى على المجتمع الذى يعيش فيه !

وان حياة مكسيم جوركى فى هذه الآونة تنقسم الى شطرين يبدآن من حاضره ، ليسير احدهاعلى طريق ماضيه حتى ساعة مولده ، ويسير الثانى على طريق مستقبله المجهول لينتهى حيث يخفق سراج حياته خفقته الاخيرة ! !

واذا قدر لاحد من الناس ان يتابع حياة مكسيم جوركى من تلك الليلة الرهيبة سائرا مع الزمن الى وراء ، فان عليه ان يخوض معارك دامية طاحنة عاناها مكسيم من لياليه المنصرمة فتركت فى نفسه وقلبه الجراح الغائرات .

ولو ان مكسيم وهو فى تلك الليلة اتيح له ان يسرد قصة حياته مجملة ، لقال وصوته يهدر على الظلام :

كانت طفولتى شقية شريدة وكان كل يوم فيها يقطر بالتعاسة والعذاب . . وكل ماتعيه ذاكرتى عن ابى انه كان صانعا يختطف قوت يومه من بين انياب الشقاء . وانه تعرف الى جدى وهو رأس آل كاشيرين وصاحب مصبغة فى مدينة « نجنى نوفوجرود » الواقعة على نهر الفولجا شرقى موسكو . وكانت لجدى ابنة تدعى فاريا تزوجها ابى وكنت انا زهرة ذلك الزواج . وقدعاش ابى مع أمى فى دار ابيها حيث رزقا بى عام ١٨٦٨ واسميانى « الكسى » ولو ان اطفال الحى كانوا يطلقون على اسم « الوشا » ونحن نلعب ونلهو خارج المنازل . وقد اصبت وانا فى الرابعة من عمرى بالكوليرا وايقن اهل الدار اننى صائر الى الموت . ولكن الله كتب لى الشفاء فى حين انتقلت عدوى المرض الى والدى الطيب ولم يترك منه الوباء اللعين سوى جثة هامدة خالية من الحياة حملوها الى حيث اغلقوا عليها باب القبر الى الابد . ولم يشأ القدر بعد ذلك ان يجعل لى من حنان أمى ورعايتها عوضا فاختطفها الموت والفيت نفسى شديد الوحشة غريبا اشد

الغربة فى دار آل كاشيرين . وقدكان وجه جدى يبعث فى نفسى الرعب والاشمئزاز ولحيته الحمراء كثة مبعثرة وعيناه الخضراوان توقظان فى اعماقى الكراهية البالغة لشخصه البغيض وكانت يداه كأنهما مغسولتان بالدماء . لم اكن اطيق ذلك الشيخ القاسى ولا داره ولا ذويه الذين اشتهر الرجال فيهم بضرب نسائهم ضربا وحشيا شديد القسوة . وقد حاولوا من قبل ان يقتلوا ابى حيا وذلك ان احدا منهم فى معركة من تلك المعارك التى كثيرا ماكانوا يلتحمون فيها كالحيوانات ، اسقط والدى فى هوة ثلجية وتركه حتى يقضى نحبه . ولكن ابى تخلص من تلك الميتة بمهارة وجهد كبيرين .

وقد كان بيت جدى « فاسيلى فاسيلايفتش » فى احد دروب مدينة نجنى نوفوجرود وكنت كثيرا ما اطل من النافذة فأرى الى اليمين ساحة السجن الاصفر الرهيب الذى تعتقل فيه وتحبس عصابات المجرمين واشهد الى الشمال ذلك البناء الرمادى ذا الابراج الاربعة وكأنها تشير الى المسجونين ظلما فى تلك الاضرحة التى يسمونها السجون . ولم يكن يرحمنى من الاضطهاد غير جدتى العجوز التى كثيرا ماكانت تتشاجر مع من يقسو على ضعفى وطفولتى الحزينة . وكلما القى الليل عباءته السوداء على « نجنى نوفوجراد » فغرق اهل الحى فى السبات العميق كان صوت جدتى يترقرق فى اذنى وهى تحكى لى خرافات « نجنى » واساطير الاولين . وهكذا كانت طفولتى قسمة عادلة بين خرافات الليل وشقاء النهار . ولم يكن هناك بد والجو الذى يسود دار آل كاشيرين قاتم مكفهر ، من ان اتلمس رزقى بيدى خاصة بعد ان فشل جدى ابان حياة امى فى ان يلقننى مبادىء الكتابة والقراءة . كان على أن أسعى فى سبيل قوتى لان ذلك يتيح لى التخلص من ذلك البيت البغيض الذى تمتد فيه نحوى كل يد بالقسوة والاضطهاد . فاشتغلت عند صانع احذية . ولكنه حدث فى احد الايام ان سقط على يدى وعاء من الحساء الساخن فنقلت

الى المستشفى وتركت ذلك الصانع الى غير رجعة . وعملت كذلك فى جمع الخريقات من الطرق وبيعها . ثم انتقلت الى العمل لدى بائع اسفنج ولكنه كان نقمة على طفولتى التاعسة ولم يكن ارهاقه لى بأقل من ارهاق صانع الاحذية فهربت من العمل ورحت اذرع شوارع نجنى نوفوجرودو ووفقنى الله بعد ذلك الى العمل فى زورق بخارى اغسل فيه الصحون . وقد كانت الغابات والمرائى التى تجلبها الرحلة فى النهر الى عينى المدهوشتين سببا فى تخفيف اعباء عملى الشاق . فقد كنت اعمل من الساعة السادسة صباحا حتى ينتصف الليل . ولم يكن يشعرنى بالحياة وانا غارق فى شقائى الشامل الا طباخ الزورق الذى فتح امام عينى كنوزا غالية عزيزة . ولم تكن هذه الكنوز من الذهب ولكنها كانت من الورق المتآكل . فقد اخذ ذلك الطباخ يجلب لى الكتب لاقراها ووجدت فى القراءة وانا فى تلك الفترة العصيبة من العمل الشاق المتواصل متنفسا وراحة وسعادة . وقد اتيح لى ان اطلع قصص الجن للكاتب النرويجى « هانس اندرسن » . كنت اقراها بعد ان يشل يدى غسيل الصحون طيلة النهار فأحس التعب قد تبخر . والعناء قد ذهب ! وكنت اقرأ بعد ذلك بلزاك وفلوبير وبوشكين وجوجول ولرمنتوف وترجنيف . ولم يكن كتابى الاكبر سوى الحياة بما اشتملت عليه من مختلف النماذج والصور واضداد الاشكال والانواع والشيات ! ولكن الالم كان يحز فى نفسى كلما وجدتنى مرغما على انفاق ساعاتى فى العمل لالتقاط فتات من الخبز امسك به حياتى . لان ذلك كان يصرفنى مضطرا عن تزويد عقلى وروحى بالزاد الفكرى الرفيع ! كم كنت مسكينا معذبا منكودا !! ولو ان احدا تعهد بى وقال : اذهب .. وليكن وقتك كله للمطالعة والدرس ولكننى اشترط لذلك ان تضرب عنقنا امام الناس فى ميدان نيكولايفسكى ايام الاحاد . اذن لقبلت ذلك الشرط موفور السرور منشرح الصدر !! كانت روحى جائعة مثل معدتى ! وما اقسى الشعور بجوع الروح !



انه يطحن ويذرى كل تماسك نفسى عبر الهواء ! ! لبيك . . لبيك أيها النهم الذى يستبد بعقلى وبروحى ! انا سائر الى قازان وفيها الجامعة وسأحاول الالتحاق بها ما وسعتنى الحيل والجهود ! !

هأنذا فى قازان سنة ١٨٨٤ ، وقد فشلت فى الانضمام الى جامعتها ، ولكننى نجحت فى ان اكون احد افراد حلقة سرية سياسية . وعملى فى هذه الحلقة حارسا على رصيف النهر . وكنا نجتمع عند مدخل المدينة فى « القصر البللورى » . ولم يكن ذلك القصر غير طلل مهجور محطم النوافذ تئن بين أرجائه الرياح لانها لا تجد فيه ما تعبث به بعد ان عبثت به يد التدمير والخراب ! وقد كانت حلقتنا تضم اشكالا متباينة من طريدى الحياة ومتشرديها فهذا طالب مطرود من الجامعة وهذا متسول انهكه السؤال وهذا شريد القت به الايام جائعا عريان وهذا انا تصطخب فى ذهنى صور الالام وكوارث العيش . لقد كان كل منا صاحب ماض لا يتوافق مع ماضى الاخر . . ولكن ، كان يربط كلامنا بالاخر حاضر مرير ، تضطرم تحت رماد يأسنا نيران الثورة الخفية . وقد عشت بين هؤلاء المكدودين نهبا لعوامل أليمة تسلطها نفسى على نفسى كانها السياط ، وتعكسها على روحى تلك المشاهد المفجعة التى كنت ارى فيها زملائى . . البطالة والجوع والسأم . . وهذه الاكوام الادمية تدب فى اثمالها كانها تتدثر وهى حية بأكفان ممزقة مهلهلة . . يجب ان يسخر الكتاب اقلامهم ومواهبهم ليرسموا تلك الصور الحزينة المضطهدة من الناس . وحينئذ ، يهتز الضمير الانسانى الظلم الذى تكابده طبقات الشعب الكادحة العاملة . . القلم ! ! انه هاتك الستور والاقنعة وفاضح الحقائق المستترة ! ! انه امضى من السيف وابتر من السلاح ! ! فليشهر الكتاب اقلامهم فى وجه القيصرية العاتية التى لا تحكم البلاد بالبرلمان ولا تتفق مع النظم الديموقراطية فى كثير او قليل ! ! اننا نموت جوعا وغيرنا يموت من فرط التخمة ! ! شد ما اتمنى ان اصبح كاتبا ، فأضرب المثل لهؤلاء الذين يكتبون للترفيه عن عدد من

الاثرياء المخمورين ، ويبدعون القصص حول الغانيات المترفات، ويتملقون فى ذلك الشهوات الرخيصة ، فيجنون على امتهم، وعلى مستقبل المجتمع الذى يعيشون فيه . شد ما اتمنى ان اصبح كاتبا فالقى درسا موجعا على كتاب الزخارف والبهارج الذين يعتبرون الفكر ملهاة يتلهى بها الناس فى اوقات الملل أو يستحث به القارىء حسا من الشهوات الدنيئة كى ينهض ! ! هؤلاء هم المجرمون الحقيقيون لانهم يحددون قالب المجتمع الانسانى بما يكتبون . والشعب يخلق وقت الحاجة شعراءه وكتابه ومنشديه .. وانا واحد من ذلك الشعب المضطهد . فلماذا لا اكون صوته وصورته ! الفكر راسم خطوط المستقبل وواضع اسسه .. هكذا تعلمت وهذا ما ينبغى ان يكون ! !

على اذن ان أعد العدة كى اشهر قلمى دفاعا عن الشعب . وقد تعرفت بصاحب حانوت بقالة يدعى « اندرى درنكوف » ووجدت لديه أكداسا من الكتب العلمية القيمة . واخذت التهمها الواحد بعد الاخر فى شغف واقبال عظيمين . واننى قد افدت افادة كبرى من جامعة الشباب الثورى هذه ، فأطلعت على نظريات آدم سميث وكلمات جراتشفسكى وكتب الاقتصاد السياسى وغيرها وغيرها من المؤلفات . وقد فتش البوليس مسكنى المتواضع فوجد احد الكتب العلمية وقد سجل اسمى منذ ذلك اليوم فى قائمة المشبوهين ! !

اقبل الخريف ولم يعد لى عمل على رصيف النهر فرحت أذرع الشوارع جائعا يعوزنى المأوى كلما جن الظلام . وقد وفقت بعد ذلك الى العمل فى مخبز يملكه وحش آدمى يدعى « سيميونوف » وكنت أعمل مع زملائى فى ذلك المخبز ١٤ ساعة متصلة مرهقة كل يوم . وقد كانت صرخات المتسولين الجائعين تهز قلبى بين جنبى ، ولكن « سيميونوف » اللعين كان قد أقام حول المخبز نوافذ حديدية تحول بينى وبين القاء بعض الارغفة الى هؤلاء الجياع المشردين .

ولم يكن ذلك العمل المضنى يستطيع أن يمنعنى من القراءة والدرس فقد كنت أفنى عمر الليل على ضوء شمعة ضئيلة والكتاب بعد الكتاب بين يدى . وقد كان سيميونوف يتفنن فى تعذيبنا نحن العمال ، فيضرب الواحد منا لاقل هفوة تبدر منه أثناء العمل . وكان يحاول أن يصرفنى عن القراءة بالقوة !! وقد حدث أن فاجانى فوجد بيدى كتابا لتولستوى فأمرنى ان ألقى بالكتاب فى النار . ولكننى زأرت فى وجهه وبين جوانحى بركان على وشك الانفجار : لن تجرؤ على احراق هذا الكتاب ! وهكذا بدأت نضالى أمام سيميونوف الفظ اللعين . وقد كنت أتمثل فى ذلك النضال الظلم الشديد والعذاب الاليم الذى كان يلقاه العمال على يدى سيميونوف صاحب المخبز . وقد حاولت أن أجعل زملائى يضربون عن العمل فى احدى المرات ولكن خوفهم والجهل الذى يسود عقولهم منعاهم من الاقدام على الاضراب !

أنشا صديقى اندرى درنكوف مخبزا بعد ذلك ، وما سمعت بذلك النبا حتى جمعت من أعرف من رفاقى فى مخبز سيميونوف وانتقلت بهم الى مخبز درنكوف وقد سرنى أن أرباح ذلك المخبز خصصت للكتب والنشرات . وكأن الذى نقل الى فى تلك الفترة خبر وفاة جدتى ، نقل معه الى نفسى الحزن والانقباض والحسرة ، ونقل معه الى عينى الظلام والدنيا نهار . وكان الخريف قد أقبل يحمل فى يمينه الزوابع وفى شماله الامطار . فضقت ذرعا بذلك الخريف المقبل كانه مصدور ينفث دم الطبيعة على صدرها ويحيل كل لون الى الصفرة والشحوب ، وكل ورقة مخضرة وزهرة عاطرة الى الارتعاش والذبول والسقوط !! أقبل الخريف فشممت فى ثيابه الصفراء رائحة الموت الزاحف على كل شيء !! ولم يكن لدى من الملابس ما أدفع به غوائل الشتاء اللهم الا هذه الخرق المرقعة التى أستر بها بدنى خجل العراء . وطافت بذهنى المكدود ذكرياتى السعيدة القديمة وأنا طفل جالس

القرفصاء استمع الى جدتى وهى تحكى لى فى جوف الليل خرافات « نجنى نوفوجرود » وأساطير الظلام . . لم يكن لى حبيب غيرها . . والان حرمنى القدر حتى من ذلك الحبيب !! تذكرت أيام كنت أصطاد الطيور وأنا صغير وأعود بمجهود اليوم تبيعه وتقتات بثمنه ! . . وكانت تلح على نفسى تلك الصور الهائنة ثم افيق فأجدنى عريان جوعان مفلسا الا من تلك الهواجس والافكار السوداء . وفى احدى الليالى الشديدة الظلام اختمرت فى نفسى فكرة الانتحار تخلصا من أوجاعى التى اصبحت فوق الاحتمال . وسرت فى ضواحى المدينة وانا فاقد الوعى ماخوذ بفكرة الخلاص من عذاب الحياة ، وغيرى ماخوذ بفكرة التمسك بجمال الحياة !! ورفعت يدى وبها المسدس واطلقت النار على نفسى . ولم احس بعد ذلك الا وانا طريح الفراش فى احد المستشفيات والى جانبى طبيب يقول : ان الجرح غائر خطير . . وانى ارجح ان المريض سيفارق الحياة فى غضون ثلاثة ايام . وحينئذ صرخت باعلى صوتى وانا لا أعى ما أقول : لا . . لن أفارق الحياة !! لن أفارق الحياة !! قلت ذلك ، وكاننى استغرب صوتى وأحسبه آتيا من أعماق مجهولة سحيقة الغور . . وكانت هذه تهاويل المرض ورواسب الاوهام التى خلفتها تلك الازمة النفسية الحادة .

عدت بعد شفائى الى الاشتغال فى مخبز درنكوف وتعرفت فيه باحد الثوريين الذين قاسوا فى منفى سيبريا عشرة أعوام طوال ، ويدعى ميخائيل روماس . وتوافق مزاجانا وميولنا فتاكدت صداقتنا وسرت معه بعد ذلك الى قرية « كرازنوفيدو » وكان يملك فيها حانوتا صغير . وقد عشت معه فى هذه القرية مدة سعيدة لاننى اطالع عن كثب - لا فى الكتب ولكن فى مسرح تلك الحياة الكبيرة - صورا حية صادقة من أحوال الفلاحين والمزارعين واصحاب الاراضى . وكثيرا ماكنت ارى بعض الفلاحين يفلق رأس زميله بالفأس لاتفه الاسباب !

وقد لجأ اثرياء القرية الاقطاعيون الى مضايقتنا — روماس وانا — لما عرف عنه من انه ثورى يجعل صغار الفلاحين والعمال يتمردون بدعاياته النارية ! ! فغادرت القرية مرغما مع احد الرفاق حتى وصلنا بحر الخزر وتنقلت فى العمل من خباز الى مأمور مخبز الى صياد ! ! !

ودارت الايام . . واذا انا مرة اخرى فى قازان ! ! ولكننى وجدت مخبز درنكوف قد اغلق وألفيت المدينة باهتة فارغة من كل مايجبب الاقامة فيها . فنزحت الى « دوبرنكا » حيث عملت حارسا فى محطة السكك الحديدية هناك ، تبدأ حراستى فى السادسة مساء وتنتهى فى السادسة صباحا . وقد رأيت بعينى رأسى كيف يشترك مدير المحطة فى سرقة الدقيق مع الموظفين ! ! وساءنى ان اضطهدتنى طباخة المدير فكانت تعهد الى فى خلال النهار وهو وقت راحتى بالكنس والغسيل ومختلف الاعمال المماثلة !! وقد كنت اقرأ هاينى وشكسبير وانا احرس الدقيق واستغرق فى احلامى الفكرية الفنية وفجأة اهبط الى مأدبة الارض واوحال الحياة ! وكنت فى ذلك الحين قد قطعت من العمر اثنتين وعشرين سنة ، وكنت قد تنقلت حارسا فى محطة كروتايا . ولكننى غادرتها فى تلك السن الى نجنى نوفوجرود فى بداية الربيع سيرا على الاقدام فلم اصلها الا فى مستهل الخريف ! وكان على ان اتقدم الى الخدمة العسكرية ولكن السلطات لم تقبلنى لان الكشف الطبى اثبت ان فى رئتى ثقوبا وان صدرى ضعيف ! وحمدت الله على ذلك ! وبدأت اتجول فى انحاء الروسيا مشيا على الاقدام فلم اترك مدينة ولاسهولا الا شهدتها وخالطت ناسها وكل من عليها وما فوقها ! !

وهذا انا بين المقابر اصلى على الموتى فى حلك الليل لاظفر فى الصباح بلقمة اسد بها رمقى

* * *

واذا كان علينا بعد ذلك ان نتم قصة جوركى للقراء فحسبنا

الآن أن نوجز خطوطها فيما يلى :

كان اهم مايشغل جوركى فى تلك الاونة هو كتابة القصص وقد احتشد ذهنه بالنماذج العديدة المتباينة التى تزدحم بها حياته ومخالطاته ودراساته لطبائع الناس . كان يعمل على وضع القصص التى يصور فيها شخصيات الجياع والمتشردين

وقد اخذ يرسل الى الصحف بعض انتاجه فتنشره معجبة به على الناس . وفى تلك الفترة اخذت مواهب جوركى فى السطوع وقد كان بعض القراء يظنون جوركى ضابطا متقاعدا ولكن محررا احدى الصحف ابان لهم أن مكسيم ليس غير متشرد من المتشردين العباقرة واخذت شهرة جوركى فى النمو، ولكن الداء الخبيث راح يراود صدره فى ذلك الحين وعمت شهرة جوركى فى انحاء الروسيا فقلقت لذلك الحكومة والقت به الى السجن ولكنها اضطرت تحت ضغط الرأى العام أن تخلى سراحه . وحين حل عيد الميلاد فى تلك السنة ، احتفل به مكسيم على طريقته الخاصة فجمع خمسمائة طفل فقير واطعمهم وكساهم فى منزله وأقام ملجأ للعاطلين والمتشردين واصبحت بعد ذلك دار جوركى ملتقى العمال ومفزعهم ومنتداهم وراح يواصل الليل بالنهار فى التأليف والداء ينخر فى رئتيه الضعيفتين ثم نفته الحكومة الى منفى « أرزماس » وساءت حاله الصحية فى منفاه ولكنه لم يرحم نفسه من الكتابة فوضع فى ذلك المعتقل أكبر عمل مسرحى انشأه وهو الاعماق السفلى الذى يصور فيه حياة المتشردين والكادحين !! وحدث ان اجتمع مئات الفلاحين وقرروا الذهاب الى القيصر يلتمسون منه القوت والكساء فأمر القيصر جيشه أن يحصد تلك الجموع الجائعة بالنار . وتمت المجزرة فأصدر جوركى بيانا الى الضمير العالمى يصور فيه هذه المأساة الاليمة ويستنجد فيه بالعدل امام الطغيان ! !

وفى عام ١٩٢١ اضمحلت صحة الكاتب الكبير واخذت تبدو عليه علامات الانهيار فسافر الى ايطاليا مستشفيا ووضع أثناء وجوده هناك « مذكرات جريدة » ، و« ذكرياتى » و« أيام جامعاتى »

و « قراءات » و « فى الحراسة »وسواها من المؤلفات

وحين عاد جوركى الى روسيا عام ١٩٢٨ احتفل الشعب بأسره ببلوغه الستين من عمره وقد مات جوركى مسموما عام ١٩٣٦ فسرى نعيه سريان الحمى فى جسد الامة الروسية وفقدت بموته الانسانية أحد الذائدين عن حرمتها المقدسة !

* * *

وبعد

فهذه خيوط أساسـية من نسيج حياة ، وليست هى سيرة مكسيم جوركى مصغرة أو مجملة ، فقد عاش ذلك الكاتب الانسانى العظيم عيشة حافلة بكل عجيب وقد نجح فى ان يصب على الورق اجدر الجوانب من عيشته بالكتابة، ولم يغادر جوركى هـذا العالم الارضى الا بعد ان ألف ١٧ مسرحية كبيرة وما يربو على ٢٥٠ قصة غير الكتب التى وضعها والمقالات والصحف التى اشترك فى تحريرها واشرف على اصدارها

وكان المطبوع من كتب جوركى الى عـام ١٩١٧ لا يزيد عـن ١٫٠٨٣٫٠٠٠ نسـخة نشرت بثمانى لغـات ، وما ان أتى عام ١٩٤٢ حتى قفز المطبـوع من مؤلفـاته الى واحـد واربعين مليونا واربعمائة وتسع وستين ألف نسخة نشرت بخمس وستين لغة .

وحسبنا ان نذكر هنا ماقاله الكاتب الفرنسى الكبير اندريه جيد فى فصل أدبى ممتع قارن فيه بين شكسبير ومكسيم جوركى ، جاء فيه :

« ان مكسيم جوركى باهماله للمجتمع الارسـتقراطى وبعدم تسجيله لما يجرى فيه ، ينأى عن شكسبير ليشق سـبيله الرائع الجبار الى النضال المتصـل من اجل مثله الاعلى الذى يبتغيه ، وهو فى ذلك يدافع بكل مشاعره عن جوهر الانسانية .. الانسانية السـليمة البريئة من كل شائبة والتى تتمثل فى نفسيات شعوب العالم بأسره دون تمييز بين كل منها »

وهذه مجموعة من سير المكافحين
فى سبيل تفتيق براعم المشاعر
الانسانية ، تتضمن بعض أجزاء
من حياتهم ، وتصور نواحى من
جهادهم الفنى على طريق الجمال
والخير والالهام ..

هؤلاء بعض الفنانين الذين
احترقوا كى يترجموا الحياة ،
ويحولوها الى أعمال فنية خالدة ،
يغنمون بها من الدنيا كل ألم ،
ويمنحون الناس بها كل مسرة

شهيد الفن والألم ..

الليـل الجاثم على «وارسو» حزين ثقيل الظلام . والفجر ! كان انفاســه احتبسـت وراء الافـق ، وآثرت ألا تشرق على الروس العتاة ، وهم يدوسـون حرمة بولندا بالنعال . وفردريك فرنسوا شوبان واجم ينتثر على وجهه العرق البـارد ، وتشتعل في قلبه حـيرة من نار . إعتزم ابناء بولندا البواسل أن يغسلوا بدمائهـم كل شـبر من وطنهم يحتله الروس . فـكيف يغادر شـوبان بلاده فى ذلك الـوقت العصيب ؟ ان ضمـيره المعـذب تدوى فيه صيحـة الـواجب . أليس بولنديا ؟ اذا كان أبوه فرنسى الاصـل ، فانه طعـم من أرض بولندا ونهـل من مائها ، وصار فردا من شعبها ، بل استاذا فى احدى جامعاتها ، وأمه من أعرق الاسر البولندية وأرقاها واشدها حماسة وحبـا للوطن . وهـو صاحب رسالة فى الموسيقى تحمل عبـير الحـرية وصـوت الالم ! حقيقـة ، انه فى نحـو العشرين ولكن .. هل للعبقرية ميعاد ؟ ألم يكتسـب بعـض شـهرته الموسيقية وهـو دون التاسعة من عمره ؟

مسـكين أنت ياشـوبان . وما عساك ان تصنع فى المعارك ، حين يشتعـل الجنـون الوطنى بالرءوس ، ويخترم الموت افئدة الشباب ؟ انك نحيـل ضئيل انثـوى التركيب ، تجلس الى البيانو كانك روح لايكاد يلمسها الانسان . ليس التناحر الدموى مجالك . ولايمكنك أن تخـدم وطنك بحمل السلاح . فعليك أن تدفـع الضريبـة من دمك واعصابك عن طـريق آخـر .

عليك ان تجعلَ موسيقاك تنوح فيها العواصف الحزينة . ولقد أصر مواطنوك الاحرار على سفرك ، وأهدوك حفنة من تراب الوطن الغالى تحملها فى صرة حريرية أينما ذهبت

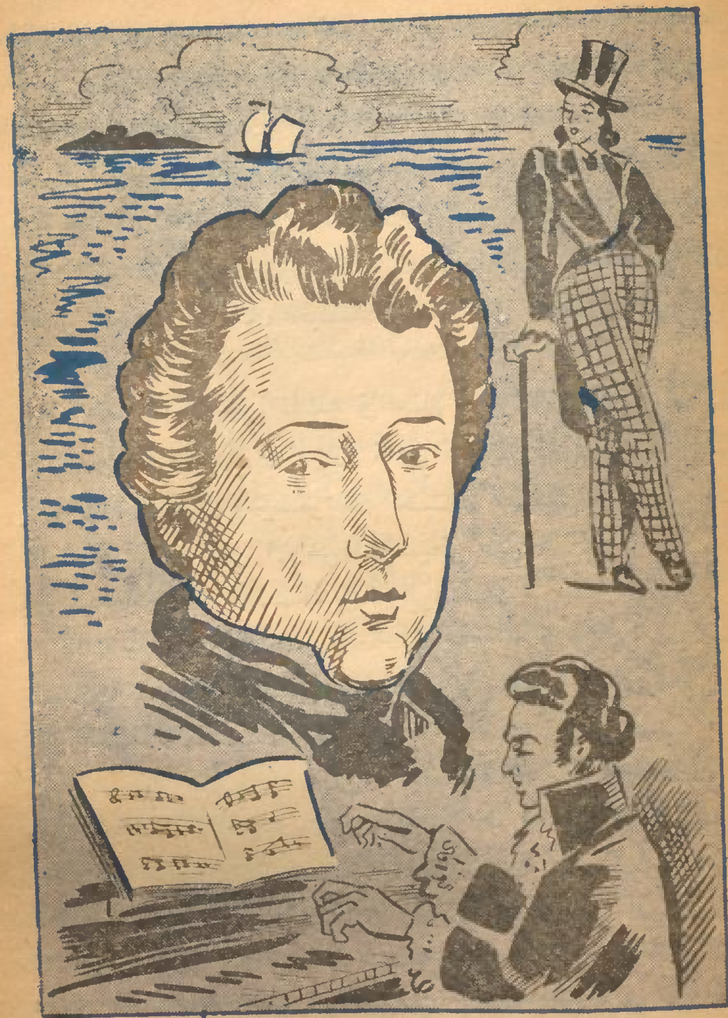
***

سافر شوبان تاركا وراءه بركان المعركة . وراح يتذكر محبة مواطنيه وعطف والديه وحنان أخواته الثلاث . ذكر طفولته فى « زيلا ، زو ، وا ، وولا » وهى تبعد عن وارسو نحو ثلاثين ميلا . لقد أتى الى هذه الدنيا رقيق البنية وكان ضعف جسده مصدر قلق لاهل البيت وكثيرا ماكانوا يصبحون صيحة الهلع والاشفاق كلما اعتزم شوبان مغادرة المنزل : « لف معطفك حول عنقك جيدا يافردريك » تذكر ذلك القول فابتسم ابتسامة عليلة ساخرة . ماذا تنفع الوقاية والمرض فى رئتيه ؟! كان يحس أن أجله قصير . لذلك ، شاعت فى موسيقاه أحزان المصدورين رهيبة ضافية . ومن يستطيع أن يسمع له « المارش الجنائزى » ثم لايعتصر نفسه الشجن ؟ ! تذكر شوبان كل ذلك ولم ينس قول مواطنيه له وهو على وشك الرحيل ، « اجعل نصب عينيك فكرة الوطن ، فان مرتفعات بولندا وغاباتها وبراريها تعيش كلها فى اغانيك وموسيقاك » فجذب الى شفتيه صورة يضعها جوار قلبه ، وهى تمثل مدينة وارسو سابحة فى نور القمر . وطبع عليها قبلة صادقة . واخذ يتطلع الى المستقبل . انه الان فى باريس شمعة وحيدة تجاهد فى مدينة النور وليس امامه مايشغله عن العمل . فقد اشتهر حتى فى عهد المراهقة باحتقاره وحملته على الشهوات . ثم أحب مغنية صبية (سوبرانو) وكان حبه لها نقيا كالفجر . قصيرا كعمر الزهر . وهو لايجد

من انحطاط قواه حافزا الى الملذات الحسية . وأنه فوق ذلك مسرف الاناقة ، رفيع النفس ذو حاسة اجتماعيه تجذب اليه عظماء الناس . وهذه باريس بعد انكسار نابليون تعوم فى أساها . غير أن النجوم الجديدة تلمع فى سمائها بالرجاء . هؤلاء هم .. دى ميسيه ، برليوز ، هيجو ، وبودلير ، وبلزاك ، طاقة من زهور الفن والفكر . وقد انتظم معهم اخوانهم ومندلسن . عليه اذن ان يشق هيلر ، وليست ، وهاينى ، ومندلسن . عليه اذن ان يشق سبيله وسط مواكب الطموح ، واذا كان قد سافر الى ثيينا من قبل ، فان الحال والبيئة هنا فى باريس غيرهما هناك . ان باريس لاتلتفت لغير المتأنقين . وشوبان تكتمل فى نفسه معانى النضوج .

ذهب شوبان الى كالك برنر ديكتاتور البيانو فى ذلك الحين لعله يتزود منه بنصيحة . ولكن كالك أجابه فى حذلقة المغرور : يجب أن تتتلمذ على يدى ثلاثة أعوام . وعندئذ أستطيع أن أصنع منك موسيقارا . فابتسم الشاب ابتسامة ازدراء . وأيقن أن ليس هناك شئ يتعلمه . وان الله وحده هو الذى يصنع الموسيقيين .

جلس شوبان الى البيانو فى احدى الحفلات . وكان بين الحضور الموسيقار الشهير « ليست » . وعزف شوبان فأحس « ليست » أن لغة السماء تتسرب من بين أصابع الفنان الشاب . وساد جو الحفلة وجوم واستغراب . لقد اذهل شوبان الموجودين وحملهم بموسيقاه الى عوالم خفية مسحورة . وما ان انتهى العزف حتى غمرت القاعه موجة من التصفيق الشديد وصافح « ليست » شوبان مهنئا وكان أول المصفقين ، ومنذ ذلك الحين أصبحا صديقين . بدأ المجتمع الباريسى يتطلع الى



ذلك الفنان الشاحب . وأخذ شوبان يقيم الحفلات ويعطى الدروس. وأتاح له دخله ان يقيم فى منزل فاخر كان يجمله بأزهار البنفسج الحزينة المحببة اليه .

وارتبط بصداقة شديدة مع عدد وفير من النساء . كانت كل منهن تضمر له الحب والاشفاق: الحب لطهارة نفسه ونقاوته ، والاشفاق على ضعفه وشحوب لونه ، واقتراب الفناء من ذلك الطائر الجميل ، وكان حبه للنساء مثل حبه للاطفال بريئا من الشهوات

أسرف شوبان على نفسه فى العمل . يواصل الليل بالنهار ثم يهب فجأة ويصيح فى مرارة: اننى هنا فارغ اليدين أصب يأسى فى موسيقاى وموسكو تحكم العالم ! ونسى أن الروس اذا كانوا يسيطرون على الارض فانه يسيطر على السماء !. وشتان بين السلطتين ، والتأثيرين ، والرسالتين

كانت وسائله فى التعبير قاتمة مثل أحزانه . وكانت رئتاه تذوبان ، قطعة ، قطعة ، مع كل يوم يمضى .. وقد أحس فى تلك الفترة اليائسة انه فى حاجة ملحة الى الحب .. الى النور يضىء به صدره الذى أوشك على الانطفاء . ودارت عجلة الزمن ، واذا عام ١٨٣٨ يشرف على الوجود ، ويختم فى مطلع أيامه مأساة غرام عنيف، قصة حب جورج صاند الكاتبة الشاذة المعروفة والفريد دى ميسيه الشاعر الرومانتيكى الشهير . وكأن القضاء أراد أن يفتح الباب للكارثة ! فساق شوبان الى التعلق بتلك المرأة فى فترة يائسة هامدة من حياته . وما الحب ؟ انه ترابط النفس وتجاوب الروح مع الحبيب . وهو تكميل الذات بما ينقصها من الاشياء . وشوبان ضعيف الجسم رقيق العاطفة وفى نفسه صفاء الغيوم . وجورج صاند

فارهة العود متوحشة الاحساس تطحن فى نزواتها قلوب الفنانين. وأحس شوبان أن الحياة الدافئة تطل على ايامه الباردة الفانية من عينيها الواسعتين الصريحتين. وكانت هى تهمس فى أذنه :

« شوبان » اننى أعبدك ! وكانت تقول عن أحد عشاقها السابقين قولا يترجم نفسية المرأة ويفضحها. تقول : « لو أنه فهمنى لاستطاع ان يحبنى. واذا أحبنى لكان فى وسعه ان يخضعنى. واذا كنت قد خضعت لرجل لشعرت بالامن فى حماه، لان حريتى تبتلعنى ! » وهذه هى المرأة .

انتقلت جورج صاند ومعها طفلاها الشرعيان الى معزل شوبان وأقسمت أن تكرس حياتها له الى الابد . ولكن قسمها كان أمام الجدران الصماء التى لا تعى. وفى شتاء عام ١٨٣٩ رحل العاشقان الى جزيرة « ماجوركا » يلتمسان فيها الهدوء والبحر والسماء. ومر شهر العسل كاسفا مظلما، تناوب فيه الاطباء فحص شوبان الذى وقع فريسة المرض، أو فريسة المرأة ! وقد شكا من هذه الحالة، وسجل شكاته فى أحد خطاباته فقال : « انهم يعاملوننى كالحيوان . قال أحدهم اننى سأموت . وقال الثانى اننى على وشك الموت . وقال الثالث اننى قد مت فعلا ». وأمرت السلطات الطبية بأخراج شوبان من البلد . أليس مصابا بالسل ؟ واضطر العاشقان الى تمضية بقية العطلة فى دير . وكان بناء مثل الطلل شيد على الطراز القوطى . له ممرات مجوفة حجرية. حجراته صامتة رهيبة . يطل على مقابر يغطيها شجر السرو .

وأخذت قواه تتدهور بسرعة مخيفة . غير أن وميض عبقريته كان باهرا رائعا جعله يتماسك كى ينسج آخر أضواء الابداع . فكان لا يفارق البيانو الا حين يسقط من شدة الاعياء . قالت

جورج صاند : « هبت الرياح وانهمر الثلج والمطر . واندفع الرهبان فى نشوة الروح يصلون للابدية . وشوبان مدفون فى موسيقاه لا يحس شيئا من حوله .. »

كان اذا جلس الى البيانو يخوض حربا صريحة هوجاء ضد كل موسيقى الماضى ، تخلص من سوناتا البيانو التقليدية بما فيها من التراكيب المألوفة . واذا كان بيتهوفن ازدرى البيانو ، وموزارت قد عالجه باهمال ، فان شوبان جعل له أهمية فريدة عظيمة . كان يحول تلك الآلة الى حياة رائعة حزينة مثله ، ومثل وطنه الجريح ، ويستعيد قول أصدقائه : « اكتب الفالسات والرقصات للفلاحين البولنديين . صف بألحانك موكب البلاط البولندى . وانشد رثاء العظمة الضائعة فى أيام النصر ، فانت ابن بولندا وقد أذابتها الشدائد » وكان يقول : « من الذى يستطيع أن يضع موسيقى قوية وقلبه مثلى حزين ضعيف ؟ »

أجل فانه أخذ يتساقط يوما بعد يوم مثل شجرة الخريف . وكانت تخاطبه جورج صاند بقولها « ياجثتى العزيزة » وكانت الحجرة التى يعمل فيها حقا مثل التابوت . ولم يكن يشعر بالحياة على سرير العرس ، بل بين جنبات ذلك التابوت !

عاد العاشقان الى فرنسا . يمثل شوبان دور الزوج وتمثل جورج صاند دور الزوجة .

واستأجرا منزلا جميلا أسرفافى تزيينه وتأثيثه على النسق الشرقى . وقد تغير شوبان كثيرا عن ذى قبل . وكان الناظر اليه يحسبه ميتا يسعى فى الكفن ، ويستطيع أن يشم من ثيابه رائحة القبر . قال الناس والنقاد عن موسيقاه انهم يكرهون حزنها وحبها العليل . وما عساه يصنع غير أن يبث فى الحانه شعور المسلول ؟ وفى تلك الاونة تنمرت جورج صاند . مالها وللمارش

الجنائزى، ذلك اللحن ذى الخطى منخفضـة الدبيب يعرض فيها شوبان موكب الموت ؟! لقد أحست أنها أضاعت فى الهباء ثمانية أعوام مع رجل محكوم عليه بالفناء ، ليله سعال ، ونهاره عمـل . استيقظت فى نفسها الحاجـة الجـائعة الى حب حسى مدمر عنيف . واشتد بها جنون المرأة للرجل . فتركت الفنان السقيم، وقد اسلمته الى حافة القبر . لم يعش بعدها غير سنتين . وقابلها مرة واحدة قبل موته . فضغطت على يده وكانت كالثلج، فانتفض شوبان وسحب يده بسرعة ، وهرب من وجهها متمتما : لم أعد أومن بالدمـوع بعد ما رأيتها تبكى .!

وفى نهاية المأساة حضرت احدى أخواته لتسهر على صحته . وأرسلت اليه سيدة معجبة فاضلة مبلغا كبيرا من المال يستعين به . وقبل أن يموت بيومين طلب أن ينشدوا له لحنا من ألحانه . وكان يقول فى آخـر لحظاته : « اعزفوا لى حين أذهب بعض الموسيقى ، فان روحى سوف تشمل بها وهى فى العالم الاخر »

الاحزان تتحول الى الحان !

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فان الموسيقى بحر ساكن الموج ثائره ، ونحن ، أنت وأنا ، نحب ان نغرق فيه بروحينا ، لان فى ذلك تطهيرا لنا أى تطهير .

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فان روحى تحب ان تفهق بين تلاطم الالحان فهقات الالم ، أن تنشق عبير الراحة ، أن تسمو وتهبط ، أن تشرق وتغرب ، أن تحلق وتغوص ، أن تجوب رحبات الغموض ، أن ترود قيعان المجهول ، وهى مبهورة بالالم ، نشوى بالمسرة ، ماخوذة بالاسرار

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فانها تذيب عن روحى طبقات التراب ، وتجلوها رائقة كالماس ، وانا تراب وماس ، جوهرى يحن الى الاشعاع ، وترابى منجذب الى الارض ، حائر .. ضائع ، يريحني أن أشع ، أن أتوهج بين الظلمات

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فان الموسيقى وحدها ، هى القادرة على تفتيق براعم الرغبات الخفية التى تنبت فى داخلى ، واحدة بعد الاخرى ، وأنا مسكين ، أقنع مسكنتى بقناع من ادعاء الفهم ، لانني انسان ، ونكبتى انني أعيش فى عصر الحديد والنار .

أيها الغرور العقلى ، افسح الطريق ، فهذه صورة لاحتراق القلب على جمرات الالم .

أيها الغرور العقلى ، لاتحاول أن تفسر شيئا ، فانت أكذوبة ، ودعنى تتقاذفنى أمواج «شوبرت» الحزينة صافية الشجن ، فانا أحب أن أستشهد غريق هذه الامواج !

مسكين « شوبرت » الفنان العبقرى ، وشقى الزمن والحياة .!

لقد شهد الفنان فى نومه ، ذات ليلة ، حلما غريبا ، أفاق منه شتيت النفس فى الهلع ، تتساقط على روحه قطرات الرهبة المجهولة ، وتداعب أوتار قلبه أنامل غير منظورة

لقد شهد الفنان فى حلمه أن أباه طرده من البيت ودفعه شاردا حائرا الى الضياع .!

ولم يكن يعلم « شوبرت » أن ذلك الحلم الغريب ، هو رمز مظلم لما ستنتهى اليه أيامه من الدمار ، ولكنه باحساسه كان يحس ذلك الرمز ، ويبطن قلبه بالخوف

ومنذ وقوع ذلك الحلم الغريب ، جعل « شوبرت » يجوب آفاق الحياة ، تجذبه القوى السحارة غير المنظورة ، وتقوده الى المسير ، ولكن .. أى مسير . !

كان ينضد من ألحان الهوى ، مواجع الحرمان ، وحيدا .. وحيدا ، الا من أساه .

ويالهول أساك « ياشوبرت »

الناس أنكروه ، وجحدوا عظمته . !

لم يختلج على أنغامه قلب ، وأنغامه بعد موته ، تهتز لها الاحجار . !

الكون الرحيب ، ذلك الكل المترابط ، الواصل بين أدق أجزائه خيط دقيق لاتراه سوى بصائر الصوفيين ، ذلك الكل العظيم ، كان فيه « شوبرت » جزءا يحبه ، ويحس أواصره

الخفية ، ويستجلى حقيقته ، فيصيح ـ أنا أحب الناس . . أحب الشجر . . أحب الماء . . أحب كل شىء . . ان قلبى يفيض بالمحبة ، فلماذا ينكرنى الناس ؟ ولا يجيب على صيحة « شوبرت » الصاعدة من أعماقه ، غير صدى تلك الصيحة ، فالليل واجم ، والوحدة جاثمة ، وبنو الارض على الارض موزعون مشغولون

اذن ، فليس غير الموسيقى بوتقة يصهر فيها الفنان ما يمتلىء به وجدانه ، وما تحبل به رؤاه

واذن ، فليعكف الفنان على افراغ أشجانه فى تلك القوالب الباهرة من الانغام ، ولا يهم الفنان ، ان أصغى اليه الناس ، أم انصرفوا عن الاصغاء

الحب . . .

هل دخل الحب الى قلبك ، وانسل فى كل طواياك سره ، وامتزج بكل لفائفك ، حتى صرت تتنفس اشواقه ، وتعانى مواجعه ، وتصبح فى اساره مملوكا ، لاقدره لك على الافلات من قيده الحبيب ، وسطوته التى تتحكم فى كل جزء منك ؟

ان « شوبرت » وقع فى ذلك الاسار ، واستعبدت قلبه يد الغرام ، فكانت تعتصره اعتصارا . . !

اليأس . . .

هل فجعك قاهر الظلم فى هواك ، فحرمك من جمال الجمال ، وأقصاك عن راحة الوصال ، وأهرق أيامك ضحايا على مذبح الحرمان ، فلون اليأس حبك بمائه الاسود ، وغلف الهيام فى نفسك بأردية الموت ؟!

ان « شوبرت » عاش فى قبضة اليأس هالك الرجاء ، فغنى بين



ظلمات أيامه اغانى الحب اليائس المحروم ، وارسلها من قلبه مثل السهام تكاد تثقب جدران السماء

وتحت لطمات الحياة ، يسقط الفنان الشاب الذى ينكره الناس أجمعين ، صريع المرض وهو فى عنفوان الشباب

لقد انهار الفنان فى السادسة والعشرين ، فحملوه الى المستشفى يلتمسون له الشفاء بين عقول الاطباء .

ولم يكن انهيار صحته غير فجوة اندفقت منها عبقريته اندفاقا ، وسالت على الورق سيولا ، الحانا الحانا .

وعجز الاطباء ، لان كلمة الله تسمو فوق عقولهم الكليلة وكان الله قد كتب للفنان أن يمرض ليمنح الدنيا وهو فى جحيم بلائه أزاهير عابقة من فنون النغم .

الثمن باهظ باهظ ، ولكن الفنان يدفعه من هنائه ، يدفعه من شبابه ، يدفعه من راحته دون التماس الاجر ، لانه مرسل والمرسلون لايملكون من أمورهم شيئا .

ويغادر « شوبرت » المستشفى ميئوسا منه ، تتراكم فى نفسه أحزان الدنيا بأسرها ، فهو يائس الغرام ، مطحون القوى ، عليل البدن ، طريد الحياة ، يتامر كل شىء على اشعاره بأنه ضائع يشرف ومضه على الغروب .

وسدى ينشد المسكين النسيان ، فلا الخمر تجدى ، ولا الفرار من الناس ، ولا محاولة الهروب من هواجسه . !

وعندئذ ، تختمر تلك الاحاسيس فى قلبه فيصبها نسقا خالدا من الانغام ، وتخرج « السيمفونية التى لم تنته » تخرج من ذاته حروفا موسيقية لايسمعها غير روحه ولا تحييها نفس غير نفسه بتهاليل الابداع

. ويخاطب شوبرت ذاته بقوله - ان هذه السيمفونية صورة نفسك ، صورة رجل لارجاء له فى استعادة صحته ، وقد ذهبت آماله جميعا الى الهباء

• • • • ويموت «شوبرت» مجهولا من معاصريه ، ليكتشف عبقريته بعد موته المنصفون

اغمرينى ، اغمرينى بهذه الامواج ، فأن السيمفونية التى لم تنته تسحرنى ، بل تحولنى الى شجن من أشجان ذلك العبقرى العظيم

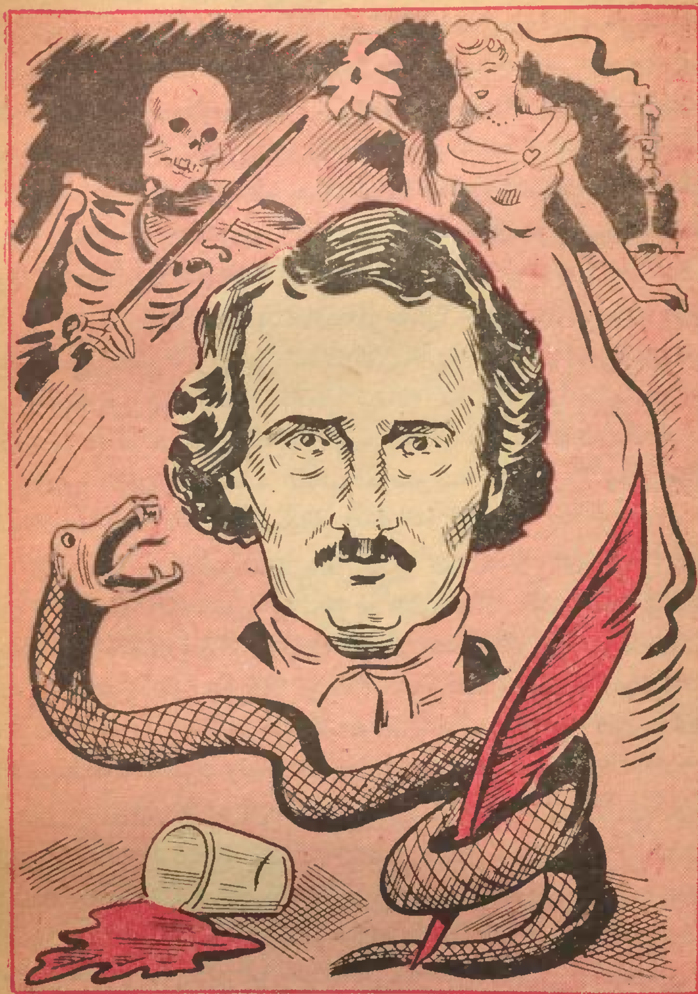
أغمرينى ، أغمرينى بهذه الامواج ، فان روحى تحب أن تفهق بين تلاطم الالحان فهقات الألم ، أن تسمو وتهبط ، أن تشرق وتغرب ، أن تحلق وتغوص ، أن تجوب رحبات الغموض ، وهى مبهورة بالألم ، مأخوذة بالاسرار .

العبقرى .. البوهيمى .. البائس

كان أبواه يشتغلان بالتمثيل فى الفرق المتجولة ، وتركاه عـــلى عتبات الحياة طفلا صغيرا كسير القلب ، اعزل من كل سلاح . لم يورثاه غير الوحشة واليتم والفقر ، ولكن عناية السماء منحته ثروة تنبع من افئدة الناس . وانهـــا ثروة لاتغيض . فقد كان منظر الطفل المسكين يثير عليه الاشفاق والحسرة والالتياع . كانت طفولته الجميلة الحزينة تهز حتى القلوب المتجمدة التى لاتخفق الا على رنين الذهب ، فاحتضن ادجار وتبناه احد الموسرين الارستقراطيين من عائلة ألان الشهيرة فى فرجينيا . وترعرع الطفل فى القصر الباذخ العامر ، ولكن نفسه ظلت مثـــل الطلل المهجور ، لاتؤمها الراحة ، ولايسكنها الاطمئنان . نعم ... ان مستر ألان اغدق عطفه عليه ، ولكنه لم يستطع ان يصوغ عقليته على غراره . لم يستطع ان يخلق من ادجار ارستقراطيا كالقرد ، منطفىء الروح ، وضاء الثياب !

لم يستطع ان يقتحم نفســه ويطرد منهـــا الهـلع والحـيرة والاضطراب ، ولم يكن يدور بخلد الرجل ان وراء هذا الوجوم وهذه الحساسية الشــديدة عبقرية تجاهد للظهور

ارسل ادجار الى مدرســة انجليزية داخلية ، وعاد الى امريكا مهدم النفس انيق المظهر ! وقد تعلم اهم مايتقنه الانجليز ابنـــاء الطبقة الراقيـــة . تعلم التهور فى المقامرة والشراب . وجعله يسرف فى هاتين الرذيلتين ضعف ارادته الذى لازمه طول الحياة . لم يكن يعرف غير الانطلاق حتى لو قاده الى التلف والهـــلاك . ولـذلك



تضخمت فى نظر المجتمع رذيلته وكان ينفض ما بنفسه على لسانه، ومن هنا قيل انه سليط . كان لا يقوى على ضبط اعصابه امام طوارىء الناس والحياة . وهل يملك المرجل ألا يغلى والنار تحته متواصلة الحريق ؟!

هذه كلها هى جملة عيوبه كما يراها معاصروه ، وهى التى أتاحت لعبقريته سبيل الظهور ، وهى التى زرعت فى طريقه المتاعب وختمت ايامه بالفاجعة الاليمة .

لم يكد ادجار ان يلتحق بجامعة فرجينيا حتى اخذ يستدين ويستدين ليقامر ! وفوجىء مستر الان بالدين المتراكم الذى كان عليه ان يدفعه عن ربيبه الشاعر فانفجر غضبه كالبركان . واخرج «بو» من الجامعة ليبدأ صفحة جديدة من حياته فى ديوان المحاسبة .

يالهزء الاقدار!! ماهذه المكاتب المرصوصة كالقبور ؟ ومن هؤلاء الجالسون كالآلات يشتغلون بالارقام ؟!..

لقد شعر «بو» وهو معهم بثقل الطين يجذبه الى الارض فى حين ان الله وهبه الجناحين كى يحلق فى السماء !.. ولم يجد بو عملا يغذى به حماسته وفورة عواطفه، فانخرط فى الجيش . وظل هناك عامين كاملين حتى رقى الى رتبة « سيرجنت ميجر » ، وحينذاك عاوده الحنين الى الفرار من القيد والقانون . وكأنى به يقول : نحن الذين صنعنا القيود ونحن الذين ندمر القيود !..

حار الوالد المزيف فى طيش ربيبه البوهيمى ، وأحس خيبة امله فى ذلك الولد اللقيط . كم تمنى مستر ألان ان يربى ادجار تربية صالحة تؤهله لان يصبح وريثه . ولكن ادجار كان يطعم الرجل من أخطائه المتلاحقة صنوف المرارة واليأس . وبالرغم من ذلك، اقتفى مستر ألان اثر بو بعد هروبه من الجيش . وقرر ان يفسح له الفرصة الاخيرة لعله ان يصلح ما سلف . والتحق بو بالاكاديمية الحربية . ولكن هيهات ان يخضع الثائر للنظام ! وان يجنح الطليق الى التكبيل ! لقد اذهل الطلبة حرصه الشديد على الابتعاد عنهم . وكيف يعلمون انه يقيم فى وحدته عالما غنيا بالمخلوقات،

عالم الطيوف والصور والاحلام؟! واخيرا وقعت الكارثة وطرد الشاعر من الاكاديمية شر طردة. وعند ذلك، نفض مستر ألان يديه من امر بو . وأفلت الشاعر من الارستقراطية التى طالما اقتضاه تكلفها جهدا شاقا كبيرا . وراح بو ينسج من مشاعره واخيلته المحمومة شعرا لم تسمع مثيله أمريكا من قبل . واخذ يزف الى الصحف قصائده الفريدة الغريبة، عروسا بعد عروس . وظن الناس ان فن بو معقد لاقيمة له . والواقع انهم عجزوا عن استيعاب القوالب المستحدثة التى ابتدعها فى طريقته الفنية الفريدة. عجزوا عن الاستمتاع بذلك الصدى الوحشى لموسيقاه الجديدة . ونشر اول عمل شعرى فى كتيب أجمعت الصحف على استحسانه. ولكن عبقرية بو كانت تضيق بها قوافى الشعر وانغامه ، فتطلع الى الرواية ، وكأن صوت القدر كان يهمس فى اذنه : ان شهرتك ستأتى عن هذا الطريق !..

وصدقت النبوءة . وفاز ادجار بالجائزة الاولى فى مسابقة قصصية ورغب اصحاب الصحف فى بلتيمور ان يتناولوا الغداء مع الرجل الذى نال اولى الجوائز ، ولكن «بو» لم يذهب، ارسل اليهم معتذرا فى صراحة عجيبة بانه يأسف لعدم استطاعته تلبية دعوتهم . وسبب ذلك امر طبيعى متواضع هو انه ليس لديه ملابس لائقة يحضر بها الى الحفلة ! .. كان بو يجتاز فى هذه الفترة ضيقا ماليا شديدا . وسمع ذات يوم ان مستر الان على فراش المرض فهرول اليه ، وكأنه يحمل فى عنقه جمائل المريض بعدد السنين التى انفقها فى كنفه ورعايته ، واقتحم غرفته واخذ يتمسح بجواره كمن يطلب المغفرة عن ذنب عظيم .. ولكن الرجل استجمع قواه وهب من رقدته وامر الخدم بطرد ادجار من البيت . وظل بو يعقد الرجاء على الوصية التى تركها مستر ألان بعد موته . وكم كانت صدمته عنيفة حين وجد ان الراحل لم يترك له دولارا واحدا .

واخذ سكان بلتيمور يشيعون حول ادجار الشائعات . وتوالت

سخريتهم به وتهكمهم عليه . ولكن بعضهم اتفق على مساعدته، وتمكن بو بعد ذلك من العمل لقاء عشرة دولارات اسبوعية فى صحيفة « الرسالة الادبية الجنوبية » فى ريتشموند بفرجينيا ، وأحس ان حياته استقرت الى الابد فأعلن زواجه من فرجينيا كليم . وكانت تبلغ الثالثة عشرة فى ذلك الحين . وتزوجها بالرغم من محاولات اهلها تأجيل الزواج حتى تكبر الفتاة . كانت فرجينيا بنت عمته صبية ناعمة رقيقة ، يكاد يطفر قلبها بالحب والامل والسذاجة. احبها ادجار كما لم يحب احدا ... ولكن الغيب كان يضمر للفنان المسكين ويلات واهوالا ، وقد جاء فصل بو من عمله نذيرا لما تبعه من الكوارث . وكان الدافع الى الاستغناء عن خدماته كما قال مستر هوايت هو اسرافه فى الشراب وسلاطة لسانه فى الزراية بكل من يصطدم به

حزم ادجار امتعته الى فيلادلفيا لعله يجد حظا اسعد وعملا احسن ونسى انه يقابل سوء حظه وظلم ايامه اينما ذهب. نسى انه يحمل فى نفسه العناصر التى تدمر حياته . الانفعال السريع الطائش، وضعف العزيمة ، وعدم القدرة على ايجاد الاصدقاء. ولم يحاول ان يصلح نقائصه ، حتى يشق طريقه ثابت الاقدام . وقد نشر فى تلك الآونة مجموعة من القصص حمل عليها الكتاب الموتورون الذين طالما آلمهم نقده اللاذع لاعمالهم . واسودت الدنيا فى عين ادجار . وتوالت عليه بعد ذلك الخطابات التى تحمل اليه اسف اصحاب الجرائد لعدم استطاعتهم التعاون معه . كانوا يشترطون عليه ان يكف عن الشراب ،ويظهرون استعدادهم للارتباط به اذا هو انقطع عن الخمر .وتتابعت الضربات اشد ايلاما . واى المواجع أفدح من سقوط فرجينيا زوجته وحبيبته وقد انفجر لها شريان ؟! وعاش ادجار ست سنوات كاملة يكابد مرضها

كأنما هو المصاب بالمرض . وكانت تفترسه لحظات عنيفة من الرعب والجمود واليأس والامل .

ولم يكن يجد غير الخمر منفذا من هذه التيارات النفسية الحادة ! وكان يعلم أن فرجينيا تذوب بين يديه ، فتذوب نفسه بين جنبيه .. وفقد عمله مرة اخرى فى مجلة جراهام واضطر بو المتغطرس ان ينزل عن كبريائه فكتب الى أحد أصدقائه : عزيزى جريس وولد . ألا تستطيع أن ترسل لى خمسة دولارات ؟! أنا مريض ، وفرجينيا على وشك الموت

وغادر فيلادلفيا بعد ذلك الى نيويورك ومعه زوجه العليلة . ولم يلبثا الا قليلا حتى داهمهما الشتاء يحمل فى ثلوجه للزهرة الذاوية الحمى والعرق والسعال .. ورقدت فرجينيا على سرير متواضع تلتف بمعطف ادجار رجاء أن يجلب اليها الدفء والصحة ، وكان بو يدلك يديها لعلمه أن ذلك يساعد الدورة الدموية على الاستمرار . وكان المسكين وقد اصطرعت فى خياله صورة الموت ، يضرع الى الله أن يمد فى حياتها البائسة لحظات يمعن فيها النظر الى شحوب خديها وكانا وردتين !

والتوى عنقها الابيض نحو كتفيها الى الابد . وحمل ادجار جثتها ودفنها وهى فى معطفه الاسود الذى كان يتحايل به على تدفئتها منذ ساعات ...

انزوى ادجار بعد وفاة زوجته فى كوخ بسيط بافوردهام ، وكانت شهرته قد نمت ، فانتزع نفسه من أنياب المرض والحزن والوحدة يلقى المحاضرات فى مختلف الاندية .. وواصل رحلته الى انجلترا ، والتقى فى احدى محاضراته بمسز ويتمان التى أعجبت به . واتفقا على الزواج . ولكن المراة نفرت منه ، لانه كثيرا ما كان يوجد على أرصفة الشوارع فاقد الوعى من فعل الخمر ملطخ الثياب بالوحل

وفى عام ١٨٤٩ ، ترك فوردهام الى ريتشموند كى يشرع فى العمل الذى طالما تمناه . كان يحلم باصدار مجلة حرة يتولى تحريرها ولكنه ماكاد يصل الى ريتشموند حتى تبخرت حماسته واندثرت

آماله . وبدأت الكوارث التى حلت به تبدو آثارها على وجهه وتهدم جسمه النحيل . ولم يجد مفرا من أحزانه غير الانطواء على اوهامه وتخيلاته الرهيبة ! وخلقت له رؤاه الدامية وشعوره بالاضطهاد حالة من الهستيريا . فكان يتوهم أن هناك مؤامرة تدبر لاغتيال حياته . وقد طلب من أحد أصدقائه موسى يحلق به شاربه كى يغير سحنته تضليلا للذين يقتفون أثره !! ولم تهدأ مخاوف أصدقائه على سلامة عقله الا حين جدد بو علاقته بزميلة قديمة . كانت أرملة ثرية اتفق معها على الزواج . ورحل الى الجنوب ليعقد قرانه . ولكنه وجد نفسه فى بلتيمور فاقد الرشد . ويقال انه سقط وهو سكران فى أيدى عصابة من الناخبين الاشرار ، كانوا يطوفون به على الدوائر الانتخابية كى يعطى فى كل دائرة صوته باسم مستعار . وحملوه بعد ذلك الى المستشفى مغشيا عليه وقد فتح له هذه المرة باب القبر ! وكانت آخرة تمتمة تنهد بها المحتضر ، هى قوله :

يا الهى !! هل كان ما نراه أو كل ما يبدو غير أحلام .. فى طيها أحلام !!؟

يا واهب الفن ..

دعــاء ..

ياللحــروف .. ويالالفــاظ الــكلمات التى تخطهــا يــدى ، فيستقبلها القارىء ليسبح فيما وراءها من المشاعر والافكار . !

ليت حــروفى كانت انغــاما ، وليت كلماتى كانت الحانا ، تنقل الى قلوب الناس ، مايتسرب بين جوانحى ، وما يفلت من قلمى ، من الــوان الاحاســيس ، تنقله أصواتا على أوتار الموسيقى ، لا حروفا خرســاء على الورق الاسم الذى لايتنفس ، ولاينطق ، ولا يتنهد .. !

ليت قلمى كان قيثارا تتصاعد من قلبه تاوهات قلبى ، وتصرخ على أوتاره هــواجس روحى ، وتصدح من قوسه أفراح ذاتى . !

ليت قلمى كان قيثارا تئن فى جوفه أحزان الليل ، وتنطلق منه زغاريد الضياء . !

ما أتفه اللغة وسيلة للتعبير ، وما أضيق الكلمات عن ان تتسع لخفايا الشعور . !

ليتنى ياواهب الفــن ، كنت موسيقيا ، ينقــل مقاطع الانين ، او أناشــيد البهجــة ، ويرسم بالصوت ، كل صورة من صور الحيــاة والطبيعــة ، ويترجــم بالالحان كل نبرة خفيــة من نبرات الوجود . !

انك يارب قد منحتنى هـذا القلم ، فتعذبت فى سبيل الوفاء له السـنين ، وكان عـزائى ان تمتلىء نفسى كـرامة وعـزة ، وهو بين أنا ملى يصر فوق الورق صريرا محبوبا .!

ولـكننى يارب ، ما اصغيت مرة الى روائع الموسـيقى ، الا شعرت بأن قلمى المزهو أصبح عاجزا ضئيلا ، وبأن للكاتب لسانا واحدا ، وللموسيقى ألف لسان . وبأننى أصغر وأنكمش حتى أتوارى ، ليحتل مكانى جلال النغم . وليشـغل ماكان يملؤه وجودى ، جمال الموسيقى .!

اللهم لك الحمد ياواهب الفن، فانك قـد جعلت روحى تتزود من عطاياك الالهية ، فأرسلت الى هذه الدنيا عبقريا أذهل الوجود بموسيقاه .. وراح .. ولكن روائعه الخالدة ، ظلت لى ولابناء الحياة جميعا ، منهلا روحيـا صافيا . ترتاده القلوب ، وتجد لديه الارواح مبتغاها من الجمال. جمال الالم ، وجمال الحنـان ، وجمال المحبة .!

هـذا العبقـرى هـو « تشايكوفسكى » الذى ينتصر حبى لفنه على كل حب . والذى أصف موسيقاه بأنها الهدايا التى تزفهـا السماء الى الارض فى مواكب من السحر والجلال .!

ان لتشايكوفسـكى تأثيرا بالغا على حياتى الفنية ، لان آفاقه الرفيعة تستحث أجنحتى دائما الى التحليق . ولان موسيقاه الصريحة الجميلة ، تهيىء لنفسى جوا عاليا . تنهمر منه خواطرى وتتساوق فيه افكارى .

واننى لاجد نفسى — كلمـا افتقدتها — بين الحان ذلك العظيم، أجد آمالها ، واحزانها، ومخاوفها ومحبتها المعذبة ، أجدها جميعا أصواتا متآلفة ، تبعث الرعب فى قلبى تارة ، وتشيع الطمأنينـة تارة أخرى .

وحسبى ، كلما غام شعورفى قلبى ، أن اتذكـر لحنـا

لذلك العبقرى ، فأرى انغـــامه تمشى فى رأسى نغمـــا نغمـــا ، متصاعدة من داخلى ، مرتفعـــة فى أذنى ، واضحة كما لو كانت تعزفها امامى جوقة موسـيقية كاملة ، أو كما لو كانت تذيعهـــا اسطوانة دائرة ، فيلقى شعورى انغائم المبهم - فى اللحن الـــذى اتذكره فأسمعه جليا - ترجمة له ومتنفسا ، وأحس عنـــدئذ الراحة تفيض فى ارجاء نفسى !.

« الخميسى »

افتتاحية روميو وجوليت

كثيرا ما سألت نفسى :

لمـــاذا يبلغ حبى لموسـيقى تشايكوفسكى حـــد الهـــوس ، فأدمن الاصغاء اليها واستلهامها ، وأطوف باصدقائى ادعوهم الواحد بعد الآخر ، الى التزود مـــن جمالها ، كما يطوف بالنـــاس صاحب رسالة أوحتها السماء ، ويدعوهم الى استنباط معـــانى الحسن والخير من رسالته !.

ولمـــاذا تحولنى موسـيقى تشايكوفسكى الى أى شىء تريد ، الى شجن مرير ، أو الى عاصفة مريدة ، أو الى رقصة طائرة ؟.

وكانت عنـــدئذ تتوافد على ذهنى أجوبة عديدة متلاحقة ، أهمها ان أسلوب تشايكوفسكى فى صياغة الحانه ، سهل ، واضح الخطـــوط ، لا يعتريه أقـــل التعقيد ، وانما يفيض من وراء الالهـــام ، صريحا ، منسابا ، صافيـــا ، مثلمـــا تفيض الجداول فى احضان الطبيعـــة رقراقة حينا ، مزمجرة حينا اخر ، كما شاء لها الله أن تكون

وهكذا أجد حماسى لفن هذا العبقرى ، لا يزاحمه شىء فى قلبى ولا ينتصر عليه حماس فى روحى لانه يتوقد بين جوانحى بالدعوة الى جمال الفن .

وافتتاحية روميو وجـــوليت عمل من الاعمال التى تعيش فى نفسى ، كاملة الانغـــام ، بالغـــة التأثير .

قيل ان موت شكسبير ، هو الذى أوحى الى تشايكوفسكى ، القيام بهذا العمل الخالد ،ولكننى أرى ان المشـــاعر التى صبها تشايكوفسكى فى هذه المقطوعة، قد وهبتها فجيعته الشخصيه فى غرامه ، وقد أثارها فشله الغنى بالاحاسيس ٠٠ !

وضع تشايكوفسكى هــــذه الافتتاحية ، عام ١٨٦٩ بعد أن خيم على قلبه ضباب الذكريات الحزينه ، ذكـريات الحـب الذى أغـدقه صادقا ، لتلك المغنيــة الفرنسية الجميلة .

لقد شجعته هى على أن يتعلق بها ، ثم هجـرته ، وتركت له قصة هواهما ، تدمى بين جوانحه وتقطر بالاسى فى روحـه طول الحياة

عندئذ ، أوحـــدته المأساة ٠ فجسدها فى هذه الافتتاحية ،من بداية نصوع الغرام ، الى نهاية احتراق المحبين

ألا فليسكب فى أساليب النغم كل ما يهدد نفســه بالخراب .

ألا فلتحفل هذه الافتتاحية ، بالعـرض الدراماتيكى الكامل ، الذى تتساوق اجزاؤه مرة ، وتتناقض أخرى ، لتصور جهاد الروح فى سبيل الانتصار !

اننى حين أصغى الى القســم الثانى من هذه الافتتاحيه ،وأجد الانغام تقوى وتشتد ، ويعقبها هدوء المرهق المضنى ، ثم تنفجر متقدة صارخه كأن كتلا من الانغام تتهاوى ، لا أملك غير مقـاومة نفسى ، مخـــافة أن أسقط على الارض !

ومن هنا،يدرب العباقرة بأعمالهم الفنية ، قلوب الناس على استشعار كل شىء وعلى الامتلاء بكل حالات الوجدان

ومن هنــا يؤثر جمــال الفن وصدقه ، فى توسيع مشـــاعر الاحياء ، وفى ارهاف أحاسيسهم، ومن ثم تلون حضارة الفن جميع حضارات الحيــاة ، فلا يستطيع أحد أن ينكر ان موسيقى فاجنر التى كان يستلهمها نيتشه ، قدمهدت الطريق فى قلوب الالمان ،

لبعث الاتجاه النازى ، والتحمس له ، تعـــاونها فى ذلك أغانى نيتشـــه ، وفلسفته التى تحلم بالانسان الاعلى

باليهـات تشايكوفسكى

لماذا يشقى الفنان وهو الذى يمنح الناس السعادة ؟

انهـا ضريبة العبقـريه التى يدفعها المســكين ، مرغما ، أو طائعا ، ولكنها ضرورية على أية حال ٠٠ !

لقد كان تشايكوفسكى، يحيط نفسه بالعزله الموحشه الاليمه ، ليصنع البـــاليهات التى ترقص العالم بأسره ، وهو يبكى ٠٠ !

وحق له أن يتألم ، لان حياته كانت مزروعة بالمخاوف ،متسمة بالرهبه ، موهوبة لقسوة العمل .

حقا لقد كان يصنع الجمال ،ولكن ذلك ظل يقتضيه الثمـن الغالى طول الحياة .

الناس يتهامسون، ويتغامزون وهم يرددون : ان تشايكوفسكى ناقص الرجولة، فيتجنب المسكين ان يلقى الناس ، ويتعمـــد الا يربطهم به سـبب ، ثم تتكاثر الاشاعات ، فيوشك ان يقتله هذا المعنى الموجع الممض ، ولا يجد قطعا للاقوال والشائعات ، غير ان يتزوج .!

يالها من مجازفة خطيرة .!

ويصر الفنان فى معـــاندة مع القدر على ان يتزوج ، فيأخذ فى البحث عن امرأة صالحة .

كانت النسـاء تهيم به حبا ،والدوقات الروسيات تتنافس فى اقامة الحفلات له ، والكل يخطب ود ذلك الرجل الشاحب الجميل

وكان هو يفر من النســـاء ،ويفلت من مجالسهن .

ولم يكد يعـــتزم البحث عن زوجة ، حتى راحت تطارده فتاة جميلة تدعى «انتونينا ميليوكوف» ساذجة القلب ، فاتنة الوجه ،

بلغ حبها له حدا ارهقه ، وهددته بان تنتحر اذا لم يقترن بها .!

وعندئذ اخذ يقرع بين جوانبه الخوف ، وتستفيق بين جوانحه مأساته الشخصية ، ويتلبد فى قلبه العذاب .!

وراح سدى ينفـــرها منه ، فيقرر لها انه رجل عصـــبى ، نصف مجنون ، تتحكم فيه اشياء فوق حياته ، وانه فقـير ، غير اجتماعى ، ســجين الوحــدة الموحشة ، وان ايامه خالية من البهجة، مليئة بالاوهام الحزينة.

وكانت هى كما غالى فى تنفيرها، اشتدت فى التعلق به .

واخيرا ، لم يجد خلاصـــا ، فأقدم على الزواج، متقطع النفس، كاسف الروح ، كأن يد القـدر تدفعه الى مقبرة .!

وابتسمت انتونينا الساذجة، فى حين اخـــذت تتلوى فى قلب الفنان ، العواصف الهوجاء .!

وصارح الفنان زوجته ، بأنها لا ينبغى ان تتوقع من جانبه غير الحب الاخوى .

وفى تلك الفترة ، ســقط تشايكوفسكى فريسة الهموم ، حتى لقد حاول الانتحـــار ذات ليلة ، بأن دفن نفسه تحت اكوام الثلج عدة ساعات .

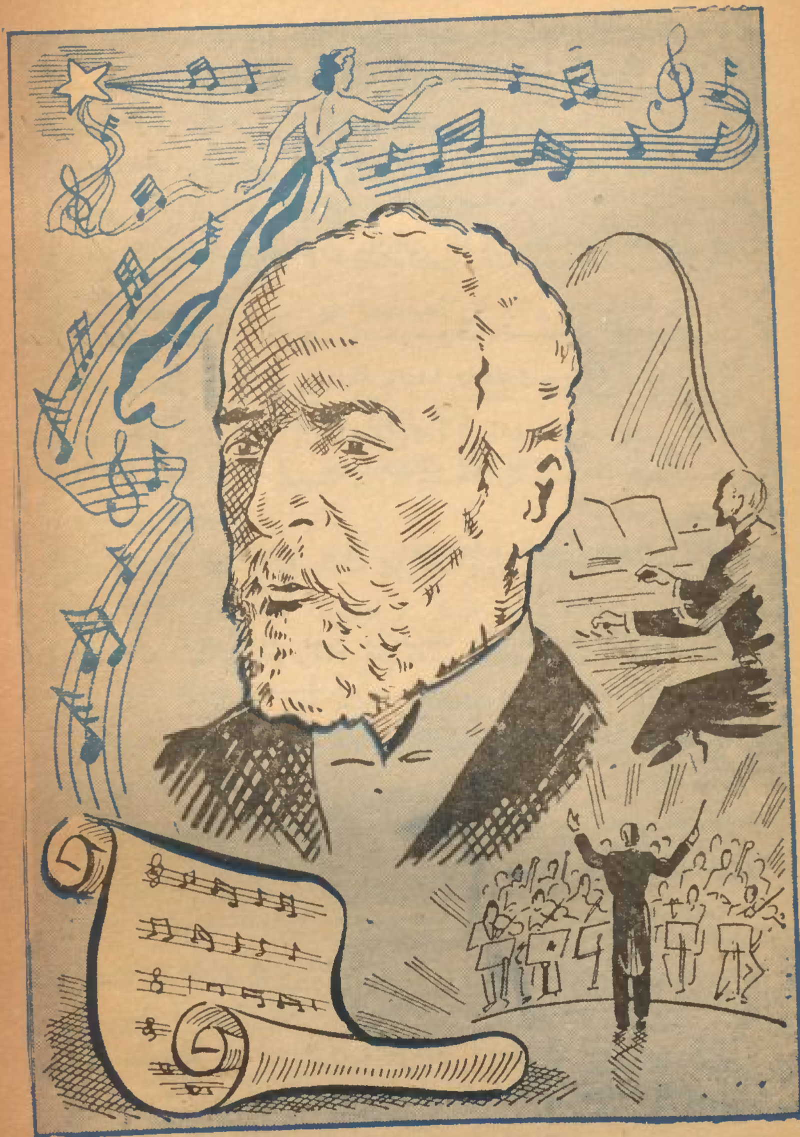
وكانت الناس فى تلك الايـام ترقص على ايقـــاع الباليهـات الرائعة المسكرة ، التى وضـعها الفنان ، ليملأ بها القلوب افراحا ويموت هو فرط الاشجان

ولم يدم هـــذا الزواج غير المألوف ، وانما انصرم من حياته، كما ينصرم الطوق من قبضـــة السجين .!

وعندئذ حاول المســـكين ان يلتقط أنفـــاس الحـرية ، وأن يستعيد جمال الانقطاع الاليم ، حيث لا شيء . . الا النغم ، وياله من عزاء .!

السمفونية الرابعة

كان يحمل حياة تشايكوفسكى حلم مجهول ، امرأة ثرية هامت



بموسيقاه ، فكانت تمد اليه يدها بالعون من وراء الستار ، ولم تقتصر مساعدتها على بذل المال ، ولكنها ارتفعت فوق ذلك الى المؤازرة الروحية .

وهذه السيدة هى « ناديزدا فون مك » التى كانت تعبد موسيقى الفنان ، وتقيم لها المحاريب .

ولقد كتبت مدام فون مك الى الفنان بعد ما انفصل عن زوجته :

سيكتب الله لك الشفاء ، وسوف تسعدك الموسيقى مرة ثانية ، وتملا حياتك ، وعندئذ ، تبدأ عملك فى سيمفونيتنا التالية .

... وكانت هذه السيمفونية الرابعة .

وكتب تشايكوفسكى بعد ذلك الى ناديزدا يقول :

عزيزتى الرقيقة

اذا لم يخطئنى التقدير ، فاننى اعد هذه السيمفونيه ، احسن عمل وضعته حتى الان .

وترسل اليه مدام فون مك مبلغا من المال ، ليتسنى له ان يدفع ثمنا لطبع السيمفونية

وأخيرا ، يعزف هذا العمل الفنى فى موسكو ، وتشايكوفسكى مقيم فى فلورنسا

وتنقضى مدة طويلة ، لاتصله خلالها انباء عن مدى نجاح عمله الاخير ، فتتولاه الهواجس ، وتضنيه الالام ، ويعجب لهذا الوجوم الذى استقبل به الجمهور الروسى هذه السيمفونية ، ويكتب الى مدام فون مك :

لقد انتظرت ان تحوز سيمفونيتى رضاء اصدقائى ، اذا لم تستطع ان تكون ذات تاثير عميق فى نفوسهم .

... وكان المعنى الذى اودعه تشايكوفسكى هذه السيمفونية هو ان الانسان اذا لم يجد السرور فى نفسه ، وجب ان

يستدير نحو النـــاس ، فيبحث عن الافراح بينهم .

وقد اراد الفنـــان ان تقول انغامه :

انظر الى النـــاس .. كم هم سعداء ، لان مشاعرهم بسيطة ساذجة ، تطبع حياتهم بالبساطة والجمال .

ويختم تشايكوفسكى للصمت المخيف الذى قابل به الجمهور عمله . ويصيح :

لاتوجد فى السيمفونية جملة واحدة ، لم يعمق شعورى بها قبـــل ان اضعها ، وان كل نغم فيها هو صـــدى صادق لاعمق اجزاء طبيعتى .!

واخيرا ، ارسل الى الفنـــان ، أحد النقاد يقول :

ان السيمفونيه جميلة صادقة، ولكن اسلوب الشعر قـــد طغى على صياغتها ، فطـــال القسم الاول منهـــا ، واسترسل اكثر مما ينبغى .!

استمرت الاتصالات الروحية بين مدام فون ملك والفنان ،على نحو غريب شـــاذ ، فلم تـــكن « ناديزدا » قـــد رأت وجـــه تشايكوفسكى ، ولم يجمعهـــا واياه مكان واحد .

وكانت المرأة خيالية ،صادقة فى حبها لفن العبقرى ، حريصة على ان يظل فى حياتها طيفا عابرا، لاحقيقة مادية .

تشايكوفسكى

وكان تشايكوفسكى ، حريصا هو الاخر ، على الا تتطور هـــذه العلاقة الروحية ، فيخسر ذلك التقدير لفنه ، وتفترسه من جديد أحزان آدم ، تفلت من سيطرته حـــواء . !

وحدث مرة واحدة ، ان التقى الفنـــان مصـــادفة ، بالمرأة التى تعبد موسيقاه ، فحملق فى وجهها ثم انحنى ، ولم ينبس بكلمة . وردت المراة التحيـــة بانحنـــاءة خفيفة ، ثم أمرت سائق عربتها بالمســـير .

وكتب لها الفنان بعد ذلك يقول :

اعذريني لاهمالي الغبي . !

الفنان والناس

كان تشايكوفسكي يعتقد ان الفنان يجب ان ينقطع عن الناس ، وان يؤلف حياته الخاصة على النحو الذي يتلاءم مع فنه ، ويخدم رسالته ، ولكن المجتمع ، لم يكن يرحم وحدته ، ولا يحترم انعزاله .

واخذت « انتونينا » بعدما انفصل عنها الفنان ، تعمل على مضايقته بكل الوسائل ، فترهقه بمطالبها المادية ، وتكلفه ما لا طاقة له به .

وكان المسكين يغدق ما في يديه بلا حساب ، وفي سبيل ان يحتفظ بهدوء وحدته

ولكنه - بعدما رفضت انتونينا الطلاق - كان يصرخ من اعماق روحه . !

لقد تعلمت كيف تستطيع المرأة ان تحول الرجل الطيب ، الى مجرم شرير . !

وتآمرت على الفنان الالام المبرحة : الارق الدائم ، وارتباكات المعدة ، والصداع ، واضطراب دقات القلب . !

ولكنه كان دائما ، يتحدى الاوجاع ، ويخدع شعوره بالالم المادي ، ليخلص الى فنه العظيم

كتب الى مدام فون مك في هذه الفترة :

انني اجد كلماتي عاجزة عن وصف المشاعر التي تعتريني ، عندما تبدأ فكرة جديدة في اتخاذ شكلها النهائي في رأسي . انني عندئذ ، انسى كل شيء ، واصبح رجلا مجنونا ، يرتبك كل عرق في جسده وينتفض ، حتى لا اكاد القى الزمن المساعف لاخراج النموذج الذي يتكامل في شعوري ، فان افكاري تتوافد

مسرعة متلاحقة على راسي ،وكثيرا ما توقظني في هذه الحالة السحرية ، صدمة خارجية ،كرنين الجرس ، او دخول الخادم، او دقة الساعة التي تذكرني بأن اعمال اليوم العادي ، ينبغي ان تراعى .

ان موسيقاى تنقلني الى عالم مختلف عن العالم الذي نعيش فيه ، فانسي نفسي ، واصبح اداة في يد قوة عليا ، تحركني كما تشاء .. !

السمفونية السادسة

طبقت شهرة تشايكوفسكي الافاق ، في حين انه لم يكن يعير هذه الشهرة اقل اهتمام

وكانت تتكاثر عليه الدعوات الى انحاء اوربا وامريكا ، كل بلد يطلب اليه ان يتفضل بزيارتها .

واعتزم الفنان ان يرحل الى امريكا ، ولكن القدر أراد أن يملأ رحلته بالعذاب ، وان يجلل هامته بالشجن ، فكتبت اليه مدام فون مك ، رسالة غريبة اللهجة ،تعلنه فيها بانقطاع ما بينهما ، وتصرح له بأنها أصبحت تمقت موسيقاه .!

وعندئذ تستبد بالفنان المرارة ويشعر كأن للألم انيابا تمزق فؤاده

هل تحسب مدام فون مك ان رسالتها مع الفنان قد انتهت، لانه اصبح في غنى عن معاونتها المالية . ؟

وكتب لها يقول :

وهل يمكن لى أن أنسى ما صنعته من أجلى .. ؟

... وظل الفنان لا يعرف السر في مقاطعة المرأة له ، فاستولت عليه حال غريبة ،ذهول مستمر ، وحيرة دائمة ، وتوزع غير عادى ، وتشتت ذهني رهيب .. !

اختير عضوا للاكاديمية الفرنسية ، وذهب الى لندن حيث تسلم درجة الشرف من جامعة كمبردج ، ولكن ذلك المجد كله لم يملأ الفراغ الذي تركته ناديزدا في حياته .. !

وفي هذه الحالة الاليمة ،راح تشايكوفسكي يطوف مأخوذا من بلد الى آخر ، وبدأت السيمفونية السادسة تأخذ

طريقهـا الى قلبـه وتكتمل فى وجدانه .

ولقد جاءت ألحانها جنائزية تئن بأغنيـة الوداع لصـداقة ماتت !

واقـترح موديا شـقيق تشايكوفسـكى ان يطلق عليـها الفنان اسم « الباثيتيك » ففعل .

وكانت هذه السيمفونية اخر اعمال العبقرى ، التى اظهر فيها للعالم لهب عبقريته ، وجمـال أمله !

واجتاح الروسيا فى ذلك الحين وباء الكوليرا ، فأصيب به الفنان ، ومات ضحيته بعد ما ترك للدنيا كنزا رائعا من الاحاسيس .

وتوارت موسيقى تشايكوفسكى فترة من الزمان ، واختبأت فى ذمة التاريخ ، ثم لم يلبث العالم ان ساوره الظمأ اليها ، فعادت ألحانه تغمر الدنيـا ، وتذهـل الوجود . !

عادت ألحانه اكثر ما تـكون جدة ، وحيوية ، وغنى . !

وراح النـاس ينهـلون من مـوارده الفـريدة الصافيـة ، ويثملون . !

ان السيمفونية السـادسة التى تبهر القلوب ، لتعتبر من اكبر اعماله واعظمها ، اذا لم تكن اكبرها واعظمها ..

ما سمعت هذه السيمفونية ، الا شعرت بوطأة الشجن المرير ، وبالوحشة الحزينـة الممضـة ، تحرق قلبى ، وتفتك بروحى ، وبالتوزع والتقطـع بين مخالب القضاء . !

وقد كانت هذه ، هى الحالة التى وضـع فيـها العبقـرى السيمفونية السادسة ..

فما أصـدقه ، وما أروعه ، وما أخلده

• • • •

ألا فانعم أيها الفنان فى عالمك الثانى ، بما كابدت من احـزان الحياة ، لانهـا كانت واهبـة عظمتك ، ومخلدة فنك .

ان رسالتك الجميلة الحزينة ، قـد عاشت فى قلوب النـاس ، وسـوف تعيش مـادامت اذن تصـغى ، وما دام قلب يحس .

ما احسسـت وحشـية الحزن الا فى موسـيقى تشايكوفسكى

وما تنسمت الحرية الا فى طلاقة الحانه ..

وما احببت صراحة العواطف الا من روائعه ..

فاين فى مصر الموسيقى التى تسكب هذه المعانى ، والمشاعر .؟

* * *

ياواهب الفن .. يارب

اللهم انك مطلع على احزانى التى تكاد تقتلنى ، لان وطنى قد نكب بفئة من تجار الفن ، يسدون الطريق فى وجه كل موهبة ، ويلفقون من تزاويق النغم الكسيح ، مايتلف الشعور بالجمال فى مصر ، وما يربط المثل العليا فى القلوب ، بتلك الحلقات المترنحة من الالحان الخاملة ...

اللهم ، ابعث فى وادى النيل ، ياواهب الفن ، عبقريا من هؤلاء العباقرة ، الذين يسحرون الوجود بالحانهم ، ويجملون الحياة بروائعهم ، وينمون باعمالهم الجميلة الكاملة ، شعور الناس بالجمال والكمال ، فترهف القلوب وتستيقظ الارواح الى حب كل جميل كامل

وعندئذ ، يتوارى كل نقص فى النفوس ، وينشيع كل حسن فى الحياة ، ويتسابق الناس الى عشق المعانى ، ويتنافسون .

نهاية فنان

كثيرا ماتنتهى حيـاة العبقرى الى مأساة دامية مروعة ، ينطفىء فيها سراجه الوهاج ، الذى اضاء من حوله عالم الارواح او العقول ، والذى اهتدت بنوره مواكب الدنيا فى اتجاه من اتجاهات المجهول .

رحمتا . . رحمتا لهؤلاء الذين احترقوا على مذابح الفكر والفن ، بعدما عاشوا شـقاوة الحيـاة وسعادتها ، واستقطروها فنونا وافكارا ، ظلت بعد ذهابهم منهل القلوب ومراد النفوس على مدى السنين .

رحمتا . . رحمتا لهؤلاء الذين اعتصروا قلوبهم رحيقا سـائغا للناس ، وسلخوا حياتهم فى ظلام الارهاق ، ليمنحوا الدنيا نورا . . اى نور

اننى ماطالعت قصـة للروائى جى دى موباسان ، حتى جعلت أتخيل حياته الموحشة القاسية ،وهو منفرد بالليـل فى حجرة ساكنة ، يصوغ من مشـاعره وقلبه النابض مقـاطع الموضوع الذى يكتب ، بـل يسـكب تلك المقاطع النفسية الرائعة الصادقة فى قالب واحد من الشعر الحماسى ،وهو فى ذلك يعيش حياة الانسان الذى يعالج حياته بالقلم ، فـكم حياة عاشها موباسـان وكتبها ، وكم فكرة نفذ اليها والتقطها ثم عكسها على الورق مقيدة بالالفاظ والكلمات .؟



الا ، ان المرء ليضل بين قصصه العديدة المتنوعة ، ليدرك ان الدنيا كانت تعج فى داخله عجيجا ، تعج بفلاحيها ، وملاحيها ، وموظفيها، ونماذجها البشرية المتناقضة ،ولياليها المتعاقبة واصباحها ، وفصولها المتلاحقة، وليدرك بعدذلك ان الفنان الذى عاش مع ابطال اقاصيصه ، ليضطرب حين ينفرد بالليل فى حجرة ساكنة ، وتتولاه من الحيرة حمى حائرة ،وتتوزع خياله وعقله ونفسه ، تلك الوجوه المتداخلة ، والاصوات المتشابكة ، ثم يجاهد كى يسكن الى الموضوع الذى يستخلصه من ذلك الزحام الضارب فى داخله، حتى اذا افلح فيما يريد ، اصبح هو والفكرة التى يكتبها ، كيانا واحدا ، لاتفصله عنها شعرة فارقة ، ثم انشأ وهو محموم بتفاعل الاندماج فى شخصيات القصة ، يكتب معجزاته السحرية!

واذا تسنى للمرء ان يتخيل حال موباسان وهو يكتب ، استطاع عند ذلك ، ان يعلم كيف جن الفنان ، وانتهى عقله الى فضاء الخبل الرهيب ، الذى تستوى عنده جميع المتناقضات !

لقد ظل الفنان السنين العديدة يلتقط الحكايات من افواه القرويين والملاحين والكتبة والزانيات والنساء ، متبعا فى ذلك القاعدة التى أفادها من « فلوبرت » وهى تنصح للفنان ، بالتأمل ، ثم بالتأمل ، ثم بالتأمل .

وكانت تطوح به فى ارجاء الدنيا، حواس القصاص العبقرى ، فيصيح :

– ان دماء القراصنة تجرى فى عروقى . ولست اجد مسرة اعظم من ان ابحر بزورقى فى صباح الربيع الى اماكن مجهولة

وكان يتظاهر بفراغ قلبه من الرحمة ، فيقول – بوسعى ان

اشق جمجمة شاعر، لا لشيء ،غير الفضول الذى يدفعنى الى رؤية ماينطوى داخل تلك الجمجمة !

ومن هنا ، جاء معظم ابطال قصصه ، حيارى لايتسمون براحة العقائد ، ولايتوفر لهم اطمئنان الروح .

وكانت بليته الكبرى ، هى قدرته الخارقة على النفاذ الى حقائق الاشياء وجواهرها ،وكثيرا ماتصبح البصيرة النفاذة محنة على صاحبها أى محنة !

وليت القراء ، ملايين القراء الذين كانوا يتخاطفون مايكتب ، ليتهم علموا ان الاشباح التى تمتلىء بها روائعه ، كانت من صنع حياته الخاصة

ليتهم علموا أن موباسان الذى يملأ وحدتهم بضجيج ابطاله ، كان يفر من وحشة حياته واقفارها المرهوب ، ويطرق ابواب الغانيات فى جوف الليل ، ليبعد الملالة والوحشة عن احساسه المعذب

المرض ذو الصداع .. المرض ذو الصداع المميت .. ان ديسمبر ملعون مسجور بالآلام .. وان موباسان ليرتعد كالورقة فى مهب الريح ، فيهرول الى موقد النار، شتاء وصيفا ، ربيعا وخريفا ، الرعشة تسرى فى اوصاله ،والاخيلة المحمومة تتزاحم فى عقله وتتداخل ، ولا شيء فى البيت غير الفراغ !

أن موباسان ليدخل الى المنزل ،وتدب على ارضه قدماه ، فيسمع وقعهما فى اذنيه قرعا مخيفا . وعند ذلك ، يدخل الى غرفة مكتبه ، فيرى .. ياهول مايرى .!احقا ؟ نعم ، حقا ، انه يرى شخصه جالسا الى المكتب ، يلوح بيده له ، ويدعوه الى الجلوس !

ويكفن الفنان وجهه بيديه ، ثم يصرخ مستنجدا ، ويفزع كالمخبول الى الخارج ، هاربا من الرؤيا المخيفة !

وتتكرر الرؤيا مرات ومرات ولايفوت الفنان ان يقطع عصبه

فى نسيج رائع لاحدى روائعه ،فيضع من تجربته المخيفة قصة La Horla ، عن رجـــل مزدوج الشخصية

ولم يكن يصور فى تلك القصة غير نفسه هو .!

وجعل موباسان بعــد ذلك يصرح للناس بانه يحب الجنون، وبانه فى طريقه الى ان يصــف طريق الجنون .

ولا يستطيع احد من قــراء الادب فى الدنيا ، ان ينسى قصة موباسان التى اسماها «يوميات مجنون »

وفى تلك الاثناء ، يرى موباسان صور الموت فى كل شىء ، وسدى يحاول ان يدفعها عن باصريه ،صور الموت تطالعه اينما سـار ، الحشرات التى تتســاقط عن الشجر ، الشعر الابيض فى رءوس الناس ، ضــوء القمر اللامع ،سطوع الشمس البهيج ، المحيط الواسع ، الانهار النبيلة الجميلة،كل هذه المرائى والمجالى تكمن فيها عناصر الموت الخبىء .!

ثم يموت اخـوه الفتى القوى فجأة ، فينهار لموته موباسان ، ويخف مع الركب الحـزين الى المقبرة ، حيث يوارى الشـباب المنطفىء وسائد الحجر والتراب

وهناك ، والقوم يوسدون الميت قلب المدفن ، ويهيلون على الشباب الذى راح اكوام الثرى ، والدموع تتناثر من الوجوه العابســة ، والآهات تفنى فى حلوق الباكين قبل ان تخرج الى الهواء ، ينزوى جى دى موباسان هامد الجسم ،مشلول النفس ، مضيع الرشاد وفجأة ، يســمع جى دى موباسان صوت اخيه الذى دفن ، يهمس فى اذنه قائلا : جى . .انك مخبول ياجى . . أنت مجنون.!

ويحاول الفنان سدى ان يهرب من صوت الميت الذى يخفق فى مسمعيه قائلا : تعال .. تعــال نلعب فى الحديقة ياجى مثلما كنا نفعل ونحن صغار .!

ومنذ ذلك الحين. يشرد الفنان فى ملكوت غير منظور لينضدد اوجاع البشرية وهمومها فى اقاصيصــه الخالدة

وتساير آلامه قوى الابداع الكامنة فيه ،خطوة خطوة ، ويرى بغتة ان كل شيء فى البيت يتحول الى حيوانات عديدة تمشى داخل المنزل وتهبط الدرج ، الكراسى ،والمناضد ، والكتب ، والاشياء جميعا ، تصبح حيوانات تدب هنا ، وتدب هناك ، وتتكلم ، وتشير ، وتولول ، وتنوح .. !

وفى تلك الاثناء يدلف موباسان الى ركن فى بيته،ويخرج مسدسا، ويطلقه على رأسه ، فيتبين انه فارغ من الرصاص

وعند ذلك ، يمسك الموسى ،ويحملق فى المرآة ، ثم يقطع بها عنقه .!

ويهرول خادمه اليه ، والفزع يأكل قلبه ، فينظر اليه جى دى موباسان مبتسما ، ويقول - انك ترى مافعلت يافرنسوا . لقد قطعت بالموسى عنقى . اليست هذه حالة الجنون ؟!

ويكتب على الفنان بعد ذلك ان يذرى ايامه الاخيرة فى فراغ الخبل .!

الا ما ابهظ مايدفع الفنان من صحته فى سبيل مايكتب ، وليت الناس بعد ذلك يشكرون



كتب قيمة بقروش زهيدة

١ ـ آبار فى الصحراء ـ مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى

٢ ـ الضاحك الباكى ـ احاديث عن الثورة المصرية لفكرى اباظة باشا

٣ ـ ألف ليلة الجديدة ـ اخراج جديد لهذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

٤ ـ نساء من خزف ـ مجموعة من القصص المصرية للاستاذ سعد مكاوى

٥ ـ صندوق الدنيا ـ صورة فكهة لفقيد الادب الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

٦ ـ فرعون الصغير ـ مجموعة قصص مصرية طلية للاستاذ محمود تيمور بك

٧ ـ الشرق والغرب ـ مجموعة قصص للدكتور محمد عوض محمد بك

٨ ـ قضايا الحب ـ مجموعة من أغرب وامتع القضايا للاستاذ فائق الجوهرى

٩ ـ جيشنا فى فلسطين ـ تسجيل تاريخى لمعارك الجيش المصرى فى حملته لانقاذ فلسطين من الارهاب الصهيونى للصاغ السيد فرج

١٠ - ألف ليلة الجديدة - المجموعة الثانية للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

١١ - فى المرآة - مختار المرايا فى السياسة الاسبوعية لفقيد الادب الشيخ عبد العزيز البشرى

١٢ - غاديات رائحات - قصص مصرية للاستاذ محمود طاهر حقى

١٣ - صانع الحب - مجموعة من القصص الواقعية للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ - دموع وضحكات - مجموعة قصص واقعية للاستاذ عباس حافظ

١٥ - عندما تحب المرأة - مجموعة قصص مصرية للاستاذ حلمى مراد

١٦ - حاجى بابا الاصفهانى - عن جيمس موربيه للاستاذ مرسى الشافعى

١٧ - جرائم ومرافعات - مجموعة من اشهر القضايا للاستاذ يوسف حلمى

١٨ - الطريق الى السعادة - من الفيلسوف الامريكى هنرى لنك للصاغ ثروت محمود

١٩ - موعد فى الجنة - قصص واقعية عن الابطال المصريين فى حرب فلسطين للاستاذ حلمى سلام

٢٠ - نجيب الريحانى - دراسة وافية دقيقة للاستاذ عثمان العنتبلى

٢١ - صور من الريف - صورة صادقة لحياة الريف بما فيه من نعيم وشقاء ، ومسرات واحزان للاستاذ زكى عبد القادر

٢٢ - الحب فى التاريخ - اشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ سلامة موسى

٢٣ - عشرة ايام فى السودان - لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

٢٤ - وراء القضبان - لزعيم حزب مصر الاشتراكى الاستاذ احمد حسين

٢٥ - مارد من الشرق - صور من الهند للاستاذ احمد قاسم جودة مع فصول للاستاذ محمود ابو الفتح صاحب المصرى

٢٦ - خبايا سياسية - فصول طريفة عن أسرار السياسة المصرية بقلم الدكتور محمود عزمى

٢٧ - جنة الحيوان - فصول فى الادب والحكمة فريدة فى مستواها لمعالى الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف

٢٨ - بائع الحب - باقة جديدة من الادب العاطفى للاستاذ احسان عبد القدوس

٢٩ - حياة ثانية - قصة حياة عجيبة تصور متع الشباب ومآسيه للدكتور ابراهيم عبده

٣٠ - ادركنى يا دكتور - صور واقعية لادق الاسرار فى حياة الناس كما تعرض للطبيب للدكتور ابراهيم ناجى

٣١ - مشاكل الحب والزواج - ارشادات للفتيان والفتيات قبل الزواج وبعده - لفائق الجوهرى

٣٢ - شخصيات بلا رتوش - تحليل واقعى لحوالى مائة شخصية فى عالم السياسة والادب والفن - بقلم الاستاذ صلاح عبد الجيد وريشة الرسام فوزى

٣٣ - قصص تمثيلية - فصول فى النقد والتحليل تشمل خمس عشرة مسرحية فرنسية للدكتور طه حسين باشا

٣٤ - الوان من الحب - مجموعة قصص عاطفية تحليلية للاستاذ عباس حافظ

٣٥ - يوميات مجنون - مجموعة قصص مختارة ترجمها الاستاذ عبد الرحمن الخميسى عن موباسان وتولستوى ودستوفسكى وتشيكوف وغيرهم من كبار كتاب القصة فى الغرب

٣٦ - العاصية - مجموعة قصص طريفة تشمل دراسة ممتعة للحب للاستاذ احمد الصاوى محمد بك

٣٧ - مهازل الحياة - مجموعة من القصص الغريبة من مختلف بلاد العالم للاستاذ حبيب جاماتى

٣٨ - فاتنة الشيطان - مجموعة من الصور الواقعية الغريبة للحياة المصرية للدكتور سعيد عبده

٣٩ - شهر فى نيويورك - دراسة ممتعة للحياة فى امريكا لرئيس تحرير جريدة المصرى الاستاذ احمد ابو الفتح

قصص للجميع

تقدم

كل شيء

المجلة الجديده
الملحقة بالعدد الجديد
من قصص للجميع
فيها آخر أخبار المجتمع
والسينما والمسرح والاذاعة
والبوليس والمحاكم والرياضة
والعلوم والطب.
كل شيء، فيها كل شيء،
... الفلك!
مع غلاف ممتاز
ومع هذا فالثمن كالمعتاد
٥



كل شيء فيها كل شيء!